مع الباحثين عن الحق

الدراسات الإنسانية التى ازدهرت فى عصرنا هذا جديرة بالحفاوة والتدبر .

وكلما اعتمدت على المنطق العقلى ، والملاحظة العلمية ، شدّت إليها انتباهنا ، واستقبلنا نتائجها بمزيد من يقظة الحس والفكر ، لأنها ستزودنا بحصيلة من الحقائق المحترمة والثمرات الطيبة ...

وما تزكو نفس ، ولا ترقى جماعة ، إلا بمدى ما تحرزه من الحقائق المعنوية والمادية .

وما يشقى الناس ، ويضلون ، إلا لاستحواذ الأوهام عليهم ، وانطلاقهم فى الحياة على غير هدى ...

ونحن نرجح أن جمهرة البَشر تفعل ما تفعل ، وتترك ما تترك عن اقتناع شخصى بصحة مسلكها ، بل قد ترى أن الصواب هو ما تعرف وتألف ، وأن الخطأ هو ما يصنعه الآخرون !

وثُمَّ أعذار تكتنف هذه النظرة الخاصة ، وتسوغ حيفها فى بعض الأحيان ...

فإن التدين من أعظم دعائم السلوك الإنسانى ، ولكن المرء لا يختار ابتداءً الدين الذى يسير وفق تعاليمه !

إن البيئة التى وُلِد فيها هى التى تزوده بأركان هذا الدين ، وتوثق به مشاعره ...

ثم ينمو الإنسان - بعد - وينمو عقله وإدراكه لما عنده وعند غيره .

وحينئذ يبدأ جهداً عقلياً صامتاً للموا ءمة بين ما ورث ، وبين استقلاله الفكرى الواجب !

ويغلب فى هذه الأحوال أن يقر ما انحدر إليه عن أسرته وقومه ، فلن يعدم فيه جوانب خير تغرى بقبوله واحترامه ، ولن يعدم عند الآخرين مظاهر نقص تجعله يصدُّ عنهم ، ويرى ما ورثه أحظى بالاستبقاء والرعاية .

وأغلب الناس فى كل زمان ومكان من هذا القبيل .

وعندما يثور عراك نفسى على شىء من الشدة ، فإن الإنسان - كى يبقى مكانه - يضاعف إحساسه بما لديه من خير ، موهوم أو حقيقى ، ويضاعف إحساسه بما عند الآخرين من شر ، موهوم أو حقيقى كذلك .

ثم يظل على عقيدته ومنهجه لا يريم .

ومن هنا امتلأت الأرض بأصحاب الملل والمذاهب المتناقضة .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (١) .

ويبقى بعد ذلك أن نتساءل : هل الحق هو وجهة النظر التى تكوِّنها الوراثات والبيئات مهما كانت أثيرة لدى أصحابها ومبرأة من كل عيب ؟

والإجابة السريعة : لا ! فما أكثر النقائض فى هذه الوجهات المتباينة .

إن الإلحاد الذى يُعَد جريمة فى بلد قد تُؤخر مرتكبها ، وتُسقط منزلته ، هو فى بلد آخر طريق التصدر واحتلال المكانة الرفيعة !

ويستحيل أن يكون كلا الموقفين سليماً .

وكم من مسىء خدعته نفسه ، فظن القبيح حسناً ، واستبطنه عقيدةً ، ودعا إليه مذهباً ، ومضى فى دروب الحياة يظهر به ويقاوم ما عداه !

وتدبر قول الله جلَّ شأنه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ..... ﴾ (٢) .

---

(١) هود : ١١٨ - ١١٩ (٢) الكهف : ١٠٣ - ١٠٥

والعلاج الأنجع لهذا التفاوت الشائع بين منازع الخلق وغاياتهم ، هو تمكين الأفكار والمشاعر أن ترى ما لدى الآخرين ، وأن تعرفه على مهل .

نعم .. يجب أن تتحطم جدران السجون التى يعيش فيها كثير من الناس ، فلا يرون إلا ما هم فيه . وتخفيفاً لضراوة هذا الخلاف ، وتيسيراً على النفوس الموقَرة بمواريثها المتناقضة ، يجب أن تتاح فرص كثيرة للدراسات النظرية التى تجعل « الإنسان » موضوعها الفذ .

إن هذه الدراسات - خصوصاً القائمة على المنطق التجريبى والاستدلال العقلى - ينبغى أن نعيرها اهتماماً زائداً ، وأن نتوصل بها إلى إثبات الإيمان الحق .

وهناك علماء كبار أولوا هذا الموضوع ما يستحق من عناية ، وألّفوا فيه كتباً قيمة ...

وكتاب « الإنسان ذلك المجهول » ، لـ « أليكسس كاريل » [1] من أعظم الجهود البَشرية فى ذلك المجال .

... إنه وقفة من الإنسان المعاصر ؛ ليتأمل فى نفسه على ضوء التقدم العلمى الساحر الذى بلغه ، وليضبط خطواته ، وهو يجتاز الحاضر إلى المستقبل ، مستفيداً من التجارب الحصيفة والمعارف الخصبة التى أتيحت له ، وناقداً الأخطاء التي تسرّبت إلى مسيره على امتداد الحياة من حيث يدرى ، ولا يدرى .

والإنسان كائن عظيم حقاً ، ولكنه غاية فى التعقيد - كما يقول المؤلف : « وليس من اليسير الحصول على عرض بسيط له ، وليست هناك طريقة لفهمه فى مجموعه ، أو فى أجزائه فى وقت واحد ، كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجى » .

إن أشتات العلوم والفنون التى يُستعان بها على فهم الإنسان ، قد تلم بجوانب منه ، بَيْد أنها لن تبلغ غوره ، وسوف تبقى - بعد مباحثاتها الكثيرة -

---

(١) الحائز على جائزة نوبل ، وهو بحث نفيس ، يعيبه سوء الترجمة وقصور العبارة .

فضلة عظيمة صلبة لا يمكن تجاهلها . وقد تكون هذه الفضلة الأخيرة متصلة بأعماق الروح ، وأبعاد العقل .

إن الإنسان - كما هو معروف للأخصائيين - أبعد من أن يكون ذلك الشبح الجامد ! وربما تلاقت جهود شتّى على إبراز ملامحه النفسية والفكرية ، .. فهل استطاعت تلك الجهود أن تستكنه طبيعة الإنسان ؟

كلا ! لقد عرفنا شيئاً لا بأس به عن كياننا المادى :

* إنه عبارة عن المواد الكيميائية التى تؤلف الأنسجة وأخلاط الأجسام .

* إنه تلك الجمهرة المذهلة من الخلايا والعصارات المغذية التى درس الفسيولوچيون - علماء وظائف الأعضاء - قوانينها العضوية .

* إنه ذلك المركب من العضلات والشعور الذى يحاول علماء الصحة والمعلمون أن يقودوه إلى الدرجات العليا فى أثناء نموه مع الزمن .

... ثم يتحدث المؤلف عن الإنسان عندما يعلو ويهبط فيقول :

« .. إنه ذلك الكائن الحى العالمى الذى يجب أن يستهلك ، من غير انقطاع ، السلع التى تنتجها المصانع ؛ حتى يمكن أن تظل الآلات التى جُعل لها عبداً دائرة بلا توقف ... ولكنه قد يكون أيضاً شاعراً أو بطلاً أو قديساً . إنه ليس فقط ذلك المخلوق الشديد التعقيد الذي تحلله فنوننا العلمية ، ولكنه أيضاً : تلك الميول والتكهنات ، وكل ما تنشده الإنسانية من طموح » .

وروعة الكيان الإنسانى لفتت مفكرينا من قديم وجعلتهم - على طريقتهم النظرية - ينوّهون بها ، ويومئون إلى أسرارها إيماء المبهور بما وراءها .

وإنك بعد أن تعى كلمات « ألكسيس كاريل » عن الإنسان ، تقرأ هذه الأبيات لـ « العز بن عبد السلام » الصوفى ، فنجد أن النظرة واحدة والتقدير متساو ، وإن اختلف التصوير على اختلاف العصور .

قال العز :

إذا كنت تقرأ علم الحروف ... فشخصك لوح [1] به أسطر

وتمثال ذلك أنموذج ... لكل الوجود لمن يبصر

حروف معانيك لا تنجلي ... لذى الجهل ، كلا ، ولا تظهر

ومَن يك غراً بأسرارها ... فمعروفها عنده منكر

إذا كان جسمك جسماً صغيراً ... ففيك انطوى العالم الأكبر

فلا ذَرَة منك إلا غدت ... بها يوزن الكون ، بل أكثر

ولا قطرة منك إلا وفي ... ينابيع أسرارها أبحر

وكل الوجود إذا قستَه ... إليك فذاك هو الأصغر

وما فيه من عرض حاضر ... يزول وأنت به جوهر

فأنت الوجود وكل الوجود ... وما في وجودك لا يُحصر

ولسنا بصدد إحصاء النصوص الإسلامية التى تعلى مكانة الإنسان ، وترفع قدره ... فإن غرضنا تتبع الكفاح الإنسانى فى هذا المضمار ، مقارناً بالتوجيه الدينى .

ومن الملاحظ أن الدراسات الإنسانية تجيد وصف الإنسان ، ومتابعة نشاطه المادى والمعنوى متابعة دقيقة .

ويمتاز العصر الحديث بأنه تخلص من الطرق العقيمة التى سارت عليها الفلسفات القديمة فى فهم الإنسان ، وطبيعة وجوده ، وغايته من الحياة .

وأنه اعتمد على أسلوب علمى رائع اقترب به من الواقع ، وابتعد به عن الحدس .

---

(١) من الأخطاء الشائعة وضع لوحة مكان لوح .

ومن هنا نستطيع القول دون مخاطرة : إن هذه الدراسات تُقرِّب الناس من الدين ، لأنها تُقرِّبهم من الفطرة .

وعندما ينتفى من الحياة الإنسانية الوهم والعوج ، فلن يبقى إلا شىء واحد ، هو الإيمان .

﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

* * *

لقد أصبحت الإنسانية المجردة عنواناً مستحباً وشعاراً مقبولاً لكثير من الساسة والمفكرين ، وكثير من الهيئات الإقليمية والعالمية .

فإذا سألت عن مدلول هذه « الإنسانية المجردة » قيل لك : هى التى تستهدف كرامة الإنسان بعيداً عن فروق الجنس والدين واللغة واللون وما شابه ذلك .

إنها تؤمن بالإنسان وحده ، وتسعى لإسعاده وإعزازه ، وما يشق عليها اليوم سيهون عليها فى الغد ، ما بقيت تكافح من أجله ...

ونحن نعرف أن هناك قلة صادقة من الناس تعمل فى هذا الميدان الواسع ... وهى تكره النزاع الدموى الذى نشب بين شتّى الأديان والأجناس ، وتعمل على تجنيب البَشر أخطاره ...

لكن الكثرة الكبرى من العاملين تحت لواء « الإنسانية المجردة » مربوطون بمبادىء وعقائد أخرى لا يحيدون عنها . بل قد يضحون بهذه الإنسانية المجردة تعصباً لها وحفاظاً عليها !

ولا يعنينا أن نتهم البعض بأنه يبطن غير ما يظهر ... وإنما يعنينا أن نعرف : ما الإنسان الذى نسعى لتوطيد مكانته ورفع شأنه ؟ وما الإنسانية التى يراد تكريم نوعها وتجاهل الفروق بين بنيها ؟

---

(١) هود : ٥٦

فنحن مثلاً لا نحترم الإنسان الذى يهدأ ، أو يثور من أجل جسده وحده ، ويقيم العالَم ويقعده لتأمين الحياة الأرضية فقط ..

إن الإنسان الذى ساد هذا الكوكب ، ويحاول أن يبسط سيادته على كواكب أخرى ، أرقى فى نظرنا من أن تكون قصة حياته كقصة حياة حشرة أو دابة .

ولو كانت الحشرة فى رقى النحلة ، أو كانت الدابة فى كبر الفيل !

ونحن لا نحترم الإنسانية التى قصارى سعيها تقديم السمن والعسل ، والغناء والرقص ، وفنون المتع الجنسية وغير الجنسية - على أن ذلك كله هو المستوى المنشود لطبقات الناس ، المستوى الذى يجب أن يبلغوه جميعاً دون استثناء .

إن شعار « الإنسان » وحده .. أصبح داعياً للريبة البالغة ، فقد ردده قوم لا يرون الإنسان أكثر من حيوان ! امتاز برقى فكرى نتيجة تطور زمنى !

إننا لا نستطيع أبداً أن نحترم أناساً قطعوا صلتهم بالله ، وعدوا الارتباط به تخريفاً ووهماً ...

وقد يكون من حقهم أن يحيوا حتى يعقلوا ، وأن تتاح لهم فرص متراخية متطاولة حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويعودوا إلى ربهم ...

أما أن يقودوا الإنسانية إلى البوار باسم الإنسانية ، فهذا ما لا يكون ...

ولا أدرى ما قيمة هذ الكلمة إذا كانت دلالتها العقوق والشره ، والتنادى من كل صوب على انتهاب الدنيا بالقسمة العادلة أو القسمة الجائرة .

إن كلمة « الإنسانية » تُظلم أفدح الظلم عندما تلوكها هذه الأفواه ...

إن « الإنسانية » التى نعطيها فضل حرمة ورعاية هى التى تدرس : العقل والقلب والبدن ، وتبحث بأدب وتواضع عن الحق والخير . والتى تتناول قضايا الإيمان ، وآثاره النفسية والاجتماعية ببصيرة مفتوحة ، وحرية واسعة .

والدين فى نظرنا هو المصدر الأوحد للحقيقة الكاملة فى هذا المجال .

وإذا كانت تعاليمه غير مسهبة فى وصف الإنسان جسداً وروحاً ، فهى قاطعة فى تقرير ما يجب عليه ، وما يجمل به ، أى أنها قدمت الثمرة دون عناء ، أو النتيجة المستخلصة دون إبراز لمقدماتها .

أما الدراسات الإنسانية فهى وصّافة للإنسان ، مصوِّرة لمادته ومعناه فى الأعم الأغلب ، وقلّما تضع قدميه على الصراط المستقيم بعد ذلك الجهد .

وأمثل السبل هو الجمع بين الأمرين :

* الإحاطة بالوحى الإلَهى المعصوم ، الذى رسم للإنسان وجهته فى صدق ، وكفل له ما ينشد لنفسه وغيره من خير .

* والإحاطة بالفكر الإنسانى الذى تعمق بحث الإنسان وأجهزته البدنية ، ومَلَكاته النفسية والعقلية ، وأحواله الاجتماعية المتشابكة مع غيره من الناس ...

هذا المزج جليل الفائدة ؛ لأنه يتيح لعلماء الدين إطلاعاً واسعاً على طبيعة الإنسان المجردة ، وحاجاته الحقيقية ، وهو فى الوقت نفسه يُرى العلماء المدنيين الأشفية التى وضعها اللّه لذهاب العلل والوسائل العلمية لارتقاء البَشر ، وزكاة نفوسهم وأحوالهم .

ولما كنتُ أحد الموصولين بالمعرفة الدينية ، ومن أولى الغيرة على تراث السماء فإنى أحب تخليص الثقافة الدينية من كل ما يعجزها عن أداء رسالتها ، أو يضلل سعيها إلى غايتها .

وما بى رغبة فى تتبع عيب أو كشف مثلبة ، إنما هى الرغبة العميقة أن ينجح الدين فى اكتساب الخَلْق إلى منهجه وجمعهم تحت لوائه .

لقد لوحظت هنات على المتدينين تستوجب النظر .

إن الصلاح الحق ينشأ عن صحة النفس ، وبراءتها من أسباب السقم .

ولنضرب الأمثلة لما نريد ؛ حتى تتضح صورته :

* عندما يكون الطريق كثير الحفر ، متموج السطح ، فلا صلاح له إلا ردم حفره وتسوية سطحه .

* وعندما يكون الخيط ملتوى الفتل ، مشدود العقد ، فلا طريق لاسترساله واستقامته إلا بفك عقده وإرخاء ليِّه .

* عندما تكون أسلاك الكهرباء مقطوعة فلن يسرى التيار إلا إذا التحمت الأسلاك ، وتم إغلاق الدائرة .

هذه مسلّمات لا تحتمل جدلاً .

* * *

والنفس الإنسانية كذلك عندما تعج بوساوس الشر ، وتضطرب بها أساليب الفكر ، فليس يصلحها تغطية هذه العيوب بثوب من المراسم والمناسك . فإن التزكية المنشودة لا تتحقق إلا بالشفاء من هذه الآفات : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (١) .

وشارات التدين واجبة الرعاية ، وشرائع الصلاة والصيام وما إليها ، لا يمكن التهاون فيها ، ولا التنازل عنها .

بَيْد أن بعض الناس يسيء إلى الدين عندما يهمل تهذيب طباعه وتقويم عوجه ، ثم يحرص على الاستمساك بشعائره ، كما يمسك الملوث قطع الصابون بيده ، دون أن يُذهب بها درناً . والأديان دائماً تصاب من سوء الفهم لها ، ومن سوء العمل بها .

وقد أرمق شخصاً من غمار الخلائق ، لم يلتصق بالدين التصاقاً ظاهراً ، ولم يطبق تعاليمه على نفسه تطبيقاً واضحاً ، ومع هذا فإن ولاءه المحدود لله وسيرته السمحة وفق الفطرة العادية تجعله أقرب إلى الحق من عشرات الأحبار والرهبان !!

* * *

---

(١) الشمس : ٧ - ١٠

ولندع ميدان التسامى النفسى بين الأفراد ، إلى ميدان الحياة العامة الصاخبة الموارة .

.. من ستين سنة - تقريباً - لاحظ أحد المؤرخين النافذى البصر ، أن الصهيونية العالمية تنسج مؤامرة رهيبة لدك المجتمع الغربى ، وقلب نظمه بعضها بالبعض الآخر ، والإفادة من نزاعها الوحشى فى تكوين « إسرائيل » ، وإقامة حكمها الذى يحلم به من قديم « حكماء صهيون » .

فماذا يصنع هذه المؤرخ الغيور ؟ لقد أعلن مخاوفه هذه مقرونة بكشف كامل عن « بروتوكولات حكماء صهيون » ومختومة بهذه العبارة :

« إن الأحداث فى العالَم تندفع بسرعة مخيفة ، فالمنازعات ، والحروب ، والإشاعات ، والأوبئة ، والزلازل - والأشياء التي لم تكن أمس إلا مستحيلة - قد صارت اليوم حقيقة ناجزة . إن الأيام تمضى مندفعة كأنها تساعد الشعب المختار (!) ولا وقت هناك للتوغل بدقة خلال تاريخ الإنسانية من وجهة نظر « أسرار الظلم » المكشوفة ، ولا للبرهنة تاريخياً على السلطان الذى أحرزه « حكماء صهيون » كى يجلبوا نكبات على الإنسانية . ولا وقت كذلك للتنبؤ بمستقبل البشرية المحقق المقترب الآن ، ولا للكشف عن الفصل الأخير من مأساة العالم .. » .

وبعد هذا الإنذار قال المؤرخ الطيب ، العظيم الثقة بدينه وقومه :

« إن نور المسيح منفرداً ، ونور الكنيسة العالمية المقدسة هما اللذان يستطيعان أن ينفذا خلال هذه الأغوار الشيطانية ، ويكشفا مدى ضلالها .

« إنى لأشعر فى قلبى بأن الساعة قد دقت لدعوة المجمع المسكونى الثامن ، فيجتمع فيه رعاة الكنائس وممثلو المسيحية عامة ، ناسين المنازعات التى مزقتهم طوال قرون كثيرة كى يقابلوا مقدم أعداء المسيح » .

إن الأستاذ « نيلوس » المؤرخ الذى رفع عقيرته بهذا الصياح من نصف قرن ،

يطلب كما ترى أن يجتمع مؤتمر مسكونى مسيحى لمواجهة أخطار الصهيونية العالَمية وصد أطماعها وضغائنها !

فما الذى حدث اليوم ؟

لقد اجتمع المؤتمر المسكونى فعلاً ، ولكن ليضع نفسه وأعضاءه ورسالته وكنيسته لخدمة الصهيونية العالَمية ، وإنجاح قضاياها .

أرأيتَ كيف يخون الضمير الدينى أمانته ، ويرتد على عقبه ، ويعمل مع الشيطان ؟

إننا نلتمس الأعذار - كما قلنا آنفاً - لناس كثيرين قبضوا أيديهم عن الدراسات الدينية ، والطريقة الدينية فى قيادة الحياة .

والتماسنا العذر لهؤلاء لا يعنى إقرار خطتهم ، أو التهوين من قيمة الدين الحق فى الأخذ بأيدى البَشر من الظلمات إلى النور .

إنه إبانة فقط عن أسباب الانحراف البَشرى وجسامتها !

وإنذار إلى القادة الدينيين كى يتبينوا ما أمامهم ، ويحسوا العوائق الهائلة التى تعترضهم ...

وفى سبيل إنصاف الحقيقة نرجو أن نسير مراحل مع الباحثين عنها ، واعتقادى أننا سنكسب للإسلام خيراً كثيراً من هذه المتابعة المتأنية ، ولعل أول هذه المكاسب الإبانة عن تلاقيه المطلق مع مقررات الفكر الناضج والسَّجيَّة المستقيمة .

* * *

التفاوت بين التقدم الروحى والتقدم العقلى

هناك شعور عام بأن العالَم قطع مراحل شاسعة فى طريق التقدم العقلى ، لكنه تخلّف ، أو - على إحسان الظن - بقى مكانه من الناحية الروحية .

وقد نشأ عن ضمور مَلَكاته الأدبية ، وتضخم قدراته المادية تفاوت مقلق ، اختل معه سير القافلة البَشرية ، واتزانها ، وبصرها بما تُقبل عليه ، أو تُحجم عنه .

وصارح عدد من المفكرين الكبار بتشاؤمهم من هذا العوج ، كما أن لفيفاً ضخماً من رجال الدين والأخلاق لا ينقطع جؤارهم من القحط الروحى الذى يسود أرجاء الأرض ، والذى يطلق الأفراد والجماعات مسعورة وراء مطالبها الخاصة ، لا يلوى عنانها بشىء .

وأريد أن أكون حذراً فى تناول هذا الموضوع لا لريبتى فى صدقه ، بل لرغبتى فى استبانة ما ينشده الضائقون بالتقدم المادى والارتقاء العقلى المجرد .

إنها غيرة مشكورة أن ننوه بالتسامى النفسى ، وأن نحض الناس على العودة إلى الدين ، والتشبث بتعاليمه ، ولكن يجب أن يكون مفهوماً أن الفضائل والعبادات التى قررها الدين لا تعوق بتة ازدهار الحياة وتقدمها المادى .

إن الإنسان عقل وقلب ، والظن بأن يقظة القلب ما تتم إلا مع خمول الفكر وازدراء الدنيا ، خطأ فاحش .

وكذلك الظن بأن سيادة العقل ما تتم إلا بتضحية الإيمان وإيحائه خطيئة كبيرة .

إن الأعصار الأخيرة شهدت نتاجاً عقلياً رائعاً نقل العالَم من حال إلى حال .

وأريد أن أقرر دون تردد أن جهاد العقل الإنسانى ومكاسبه التى ظفر بها موضع احترامنا ، وأن هذا الجهاد إذا كان قد مضى فى طريقه منفرداً لم يستصحب الدين معه ، فليس هو الملوم فى ذلك ...

فإن كثيراً من أهل الدين أساءوا إلى ربهم وإلى أنفسهم يوم بخسوا العقل قيمته ، وافتعلوا العراقيل أمام حركته .

وإذا كانوا اليوم يبكون لمتاعب العالَم الروحية ، فليس الاستماع إليهم تسليماً بوجهة نظرهم فى قيادة الحياة حسب ما يتصورون .

إن التدين الذى انكمش أمام أقدام العلم ، وقبع مكانه ساخطاً على ثمرات التقدم المدنى ، لا يستحق فى نظرنا أن يُعطى فرصة أخرى لتخريب الدنيا ، وشل نمائها .

يجب أن يزداد التفوق العلمى مقدرة على خدمة البَشرية ، وغاية ما نريد أن يصحبه على الطريق وحى اللّه وسنا توجيهه ؛ حتى لا يضل أو يزنغ ...

لقد أخطأ بعض المتدينين ، فظنوا زكاة الروح ما تتم إلا بدمار الجسد ، وضمان الآخرة ما يتم إلا بضياع الدنيا .

ومُضيّاً مع هذا التفكير الشارد تجهموا لأسباب الحياة والارتقاء ، ووقفوا بعيداً يرمقون الحضارة الإنسانية الزاحفة وهى تكبو حيناً ، وتستقيم حيناً آخر .

ولعلهم - وهم يستمعون للتنديد بضرورة المادية فى العالَم - يقولون : ألم نتوجس خيفة من هذا المصير ، ونحذركم الانحدار إليه ؟

ونحن نقول لهؤلاء : على رسلكم ، إن ما تريدون للعالَم ليس شراً مما نشكو منه الآن .

إن كل تدين يجافى العلم ، ويخاصم الفكر ، ويرفض عقد صلح شريف مع الحياة ، هو تدين فقد صلاحيته للبقاء بله القيادة .

وما نظن أهل الأرض يحنون لعودة إليه بعدما مُنِحوا نعمة الخلاص منه .

التدين الحقيقى إيمان باللّه العظيم ، وشعور بالخلافة عنه فى الأرض ، وتطلع إلى السيادة التى اقتضتها هذه الخلافة . أعنى السيادة على عناصر الكون وقواه .

ولا تتاح هذه السيادة بداهة إلا لعقل ذكى جوّاب فى الآفاق ، طلعة إلى اقتحام المجاهل ، راغب فى تطويعها لمشيئته .

التدين الحقيقى ليس جسداً مهزولاً من طول الجوع والسهر ، ولكنه جسد مفعم بالقوة التى تسعفه على أداء الواجبات الثقال ، مفعم بالأشواق إلى متاع الحياة .

فإن كان حلالاً طيباً ارتفقه ، وابتهج به ، وإن كان كسباً خبيثاً ابتعد عنه وهو قادر عليه .

إن الاستعفاف عن المفقود الميئوس منه ليس تقوى ، بل هو كصفح العاجز عن الانتقام لنفسه ، لا دلالة فيه على سماحة أو تطوّل :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجىء إليها اللئام

وعظمة الإيمان إنما تتألق وسط دنيا يملكها المجتمع المؤمن ، ويستطيع الانغماس فى فتنتها ، ومع ذلك فهو يحكم نفسه ، ويحكمها باسم اللّه .

عظمة الإيمان تعتمد ابتداءً على فقه فى آيات الكون يقف المرء على أسرار الإبداع الأعلى ، ويُشعره بما يستحقه الخالق الكبير من مجد وحمد .

عظمة الإيمان تقوم على نشاط عقلى لا حدود له ، يواكبه نشاط روحى لا يقل عنه كفاءة ، بل يُربى عليه .

أما إهزال الفكر الإنسانى ، وإضعاف ثماره ، حتى يستطيع التدين المعلول أن يملك زمامه ، فذاك ما نرفضه كل الرفض .

إذا كان عالمنا يشعر بضوائق روحية معنتة فى هذه الأيام فالعلاج الفذ ليس شجب التقدم العسكرى والصناعى ، ولكن جعل هذا كله فى وصاية « إيمان » ممدود المفهوم ، رحب الدائرة ، يؤمن بالإنسان عقلاً وقلباً ، ويستمد إيمانه ذاك من معرفته باللّه واستمساكه بهداه ...

أما تصور التقدم الروحى على أنه استرخاء فكرى .. يجر سبات الليل إلى سحابة النهار ، أو عودة بالإنسان إلى عالم من الرؤى والفنون الحالمة والآداب الهائمة ، فهذا ليس تقدماً بالحياة ، ولكنه عوج من طراز آخر .

فلنعد - بعد هذا التنبيه - إلى سماع الشكوى من الأزمة الروحية فى عالَمنا الحاضر ...

إنها شكوى صادقة كل الصدق ؛ فإن الحضارة الحديثة تقوم على عبادة الحياة الدنيا ، والاستكثار - جهد الطاقة - من لذاتها ، أو التسابق المضنى لجمع حطامها ..

أما الصلة باللّه فهى - مع ضعفها البالغ - ما تظهر فى وعى الناس إلا لماماً ، وقلّما كمن الإيمان باللّه وراء نية باعثة ، أو اقترن بغاية كريمة .

ودعك من الحديث عن اليوم الآخر ، فإن ذكر ذلك فى مجمع جاد أمر يثير الدهشة والتهمة !

وعواصم أوروبا وأمريكا - وهى مصدر النظم المدنية التى تسود الأرض الآن - سواء فى هذا المعنى . فالعالَم الشيوعى الشرقى ، والعالم الرأسمالى الغربى قد يختلف أحدهما عن الآخر فى أسلوب الحياة ، ولكنه يوافقه فى أن الحياة مقصودة لذاتها ، وأن ما وراءها وهم ، وهذه الوثنية الجديدة - أعنى عبادة الحياة وحسب - هى الطابع الدميم للحضارة الحديثة ، وقد تناول المؤرخ الإنجليزى الكبير « توينبى » هذه الحقيقة بعبارات استرعت انتباهنا ، قال : « إنى أشعر بانحسار الأديان الكبرى المعروفة ، وظهور عبادة « القوة البَشرية » مرة أخرى فى العالَم الحديث . ظهرت هذه العبادة فى شكليها التقليديين : شكل عبادة الدولة المحلية ، أو عبادة الدولة العالَمية .

« وعبادة الدولة المحلية تظهر بصورة جلية فى النزعات القومية ، بينما تتمثل عبادة المجتمع العالَمى إلى حد ما فى الشيوعية ، وفى الأمل الذى يداعب الكثيرين نحو تحقيق ضرب من الوحدة العالَمية أو الحكومة العالَمية » .

و« عبادة القوة البَشرية » كما عبَّر المؤرخ الإنجليزى كلمة تحتاج إلى إيضاح ، إذ المفروض فى منطق التدين أن يكون ولاء المرء للّه واتجاهه إليه ...

ومن الوحى الإلَهى يأخذ الناس قواعد سلوكهم ولون حياتهم .

وكل مؤمن باللّه يحيا على الأرض مرتبط الشعور والفكر به على نحو قوى أو ضعيف .

وهو إن نأى عنه بانحراف ما ، يعلم أن المصير إليه يوماً . ولهذا العلم أثره العاجل والآجل .

فإذا تقلص هذا الوعى الدينى عن الحياة الإنسانية رجع البَشر فى صوغ حياتهم إلى مزيج متفاوت من نداء الغريزة ووحى العقل .

ولطباع الناس وأفكارهم منازع وغايات شتَّى ، وقد افترقت فى العصر الحديث إلى تيارين متميزين : أولهما التيار الغربى القائم على فلسفة التفوق الجنسى ، واحتضان المواهب الخاصة فى ظل قوميات ديمقراطية ، واستعلاء عنصرى يجتاح الأمم المتخلفة ، ويديرها طوعاً أو كرهاً فى فلكه .

والآخر التيار الشيوعى القائم على تسويد الطبقات العاملة ، وتذويب الفروق القومية وإخضاع مواهب الأفراد الممتازين لمصلحة الدولة وحدها ...

وفى كلا التيارين تتضاءل أو تتلاشى صلة الأرض بالسماء ، وتنحصر الأفراد والجماعات داخل مآربها الخاصة ، ويتكوَّم الجهد الإنسانى كله وراء المنفعة العاجلة ...

وقد يعنى المرء بأهله وقومه ، كما تعنى أسراب الطيور مثلاً بمصلحتها العامة ...

بَيْد أن الحياة الدنيا ، هى أولاً وآخراً محور هذا النشاط ، ومثار هذه القوة . قال « توينبى » : « وإنى أفترض أن هذه الصور لعبادة القوة البَشرية الجَماعية تشمل ٩٠٪ من الشعور الدينى أو ٩٠٪ من سكان العالَم فى الوقت الحاضر » .

ثم قال : « والواقع أن الارتكاس فى عبادة القوة البَشرية الجَماعية بنوعيها السابقين هو السبب الحقيقى للمتاعب والاضطرابات التى تنشب بين الناس ، إن الأديان الكبرى جميعاً مهمَلة وآخذة فى التلاشى . وربما توقف مستقبل الجنس البَشرى على عودتها إلى السيطرة أو عجزها عن ذلك » .

وكلام هذا المؤرخ الكبير يشير من قرب إلى موضع الداء فى الحضارة الحديثة ، فالناس يدورون حول أنفسهم ، ولا يعرفون إلا يومهم هذا ...

وحديثه عن الشيوعية مسلَّم به كله ، لأنها مذهب ظاهر الكفر باللّه ووحيه .

أما القوميات ، فلعله - ابتداء - يقصد النزعات العنصرية الحادة التى عرفتها وما تزال تعرفها أوروبا وأمريكا .

ولكن هذه النزعات تسللت مع الغزو الثقافى إلى العالَم الإسلامى . ومزّقته شر ممزق ...

ولما كانت هذه القوميات ذات مفهوم أجوف فارغ فإن المتعصبين لها يحشونه بأهوائهم التى لا خير فيها قط ، وربما قبل هؤلاء المتعصبون للجنس أو اللون ، أن يستضيفوا الدين حيناً من الزمن ، بَيْد أنهم لا يسمحون له أبداً أن يكون رب البيت ، إنه ضيف موقوت الإقامة ، يجوز طرده إن تجاوز حدَّه !!

وليس الفيلسوف الإنجليزى « توينبى » وحده هو الذى يسوِّى بين العالَمين الشيوعى والرأسمالى فى عبادة الحياة ونسيان الدين ، لا .. فإن « ألكسيس كاريل » فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » يشرح ذلك بتفصيل وإبانة ، فيقول : « إن الدول التى تبنت بغير تبصر روح الحضارة الصناعية وفنونها ، مثل روسيا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا معرَّضة للأخطار ذاتها التى تتعرض لها الولايات المتحدة ، ومن الواجب أن يتحول اهتمام الإنسانية من دنيا الآلات وعالم الجماد إلى جسم الإنسان وروحه » .

لكن ما هى الأخطار التى تعرَّض لها العالَم الحديث ؟

إنه يُفصِّل ذلك فيقول : « كان من الطبيعى أن تضطر القِيَم الأدبية إلى التخلى عن مكانتها للانتصارات العقلية التى جلبت لنا الثراء والترف ، واكتسح العقل المعتقدات الدينية [١] وأصبحت معرفة القوانين الطبيعية ، والقوى التى تهيئها لنا هذه المعرفة لتسخير العالَم المادى هى الشىء المهم » .

ويقول : « لقد أطلقهم العلم العصرى من القيود الأدبية التى كان يفرضها عليهم النظام الدينى البحت . وهكذا حررتهم الحياة العصرية من القيود الثقيلة التى كانوا يعانون منها الأمرَّيْن ، كما أنها تحفزهم على العمل من أجل الثراء بأية وسيلة مستطاعة ، بشرط ألا تؤدى بهم هذه الوسيلة إلى السجن !!! وتفتح أمامهم جميع بلاد العالم بعد أن حررتهم من شتَّى العوائق ! وتتيح لهم إشباع رغباتهم الجنسية بطريقة سهلة كلما أحسوا بالحاجة إلى إشباع هذه الرغبة !! إنها خلصتهم من كل عناء ونظام ، ومن كل ما يسبب الضيق والتعب » .

ويقول : « لم يسبق للبَشر أن طعموا بمثل هذا النظام الدقيق ، نظراً لما طرأ على حياتهم من ثراء كان عاماً إلى أعوام قليلة مضت . ولضعف الروح الأدبية فيهم أضحوا منصرفين عن الصوم » .

ويقول : « لقد انحلت روابط الأسر ، ولم يعد للألفة والمودة وجود ؛ لأن حياة الجماعات الصغيرة قد حلت محلها حياة القطعان الكبيرة » ...

وشرق أوروبا وغربها سواء فى البُعد من اللّه ، والحرمان من الحق وفقدان المبادىء التى تمد الخاصة والعامة بالرضا والقرار .

ولا جدوى للأنظمة المدنية التى ولدتها الثورات المختلفة من حمراء وبيضاء .

واسمع مؤلف « الإنسان ذلك المجهول » يقول : « إن نظم الحكومات التى أنشأها أصحاب المذاهب فى عقولهم عديمة القيمة ، فمبادىء الثورة الفرنسية وخيالات « ماركس » و« لينين » تنطبق فقط على الرجال الجامدين ، ويجب أن يُفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البَشرية غير معروفة ، فإن علوم الاجتماع

---

(١) لاحظ أن المؤلف يكتب فى بيئة مسيحية ، فترى أن العقيدة الدينية منفصلة عن الفكر العقلى .

والاقتصاد علوم تخمينية افتراضية » . وإعطاء المذاهب القائمة عليها طابع اليقين ضرب من المجازفة .

فهى قائمة على ظنون . وأمر الحياة أكبر من ذلك : ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

ما المخرج من هذه الضوائق ، وكيف يجد العالَم سناءه الفكرى والروحى معاً ؟

الراشدون من رجالات الفكر يتفقون على أن شفاء العالَم من سقامه مرتبط بعودة الإيمان إلى القلوب الفارغة ، وعودة الأديان الكبرى إلى مكانتها المفقودة .

وهذا الرجاء سيبقى سراباً خادعاً ما لم نعرف لماذا فقدت هذه الأديان مكانتها ؟ ولماذا أفلت زمام الحياة من يدها .

وهل الأرواح الظامئة إلى الحق واجدة ريَّها فى اتباع هذه الأديان ؟ وهل الجماهير الفقيرة إلى الأمان والسكينة ظافرة بطلبتها فى رحاب العقائد الموروثة ؟

أحب - بين يدى الإجابة على هذه الأسئلة - أن أذكر أموراً لا بد منها .

إن الأديان الأرضية يجب سلخ هذه التسمية عنها ، فهى فلسفات شاعت بين أصحابها وليست أدياناً على الحقيقة .

وما يصح أن يُلتمس علاج لعلل الناس من تفكير أرضى بحت ، فيه من الخطأ أضعاف ما فيه من الصواب ، وفيه من القصور أضعاف ما فيه من التمام .

وما انقطعت نسبته إلى السماء ، فوصفه بأنه دين ضرب من التجوز قد يُقبل استصحاباً لبعض الملابسات ، بَيْد أننا نرفض بتة أن نعد هذه العقائد أدياناً يستريح الناس فى ظلالها .

إن الأديان السماوية المعروفة الباقية إلى يوم الناس هذا ، هى اليهودية والنصرانية والإسلام .

---

(١) يونس : ٣٦

ونحن المسلمون نؤمن بكتب السماء ، ونُسوِّى بين موسى وعيسى ومحمد - عليهم السلام - فى أنهم رجال صدقوا الرغبة إلى اللّه ، وأخلصوا النصح لعباده ، وحاربوا الشيطان ووساوسه ومهدوا طريق التوبة والعبادة والإحسان .

وفى مواجهة المحنة الروحية والخُلُقية التى تسود الأرض الآن ينبغى أن يُعرف مَن مِن أتباع الأنبياء يُسأل عنها ، ويحمل النصيب الأوفى فى ملاقاتها ؟

إن اليهود اليوم فى أقوى مراحل تاريخهم وأذكاها ، وقد استطاعوا أن يُسخِّروا قوى هائلة فى إقامة دولتهم إسرائيل .

فهل شم أحد رائحة التقوى والسمو فى النشاط الدينى الذى تقوم الصهيونية تحت رايته ؟

وهل شام أحد بريقاً من خير وعفة فى قيام « إسرائيل » تحمل لقباً لواحد من الأنبياء .

الواقع أن بنى إسرائيل من وراء الكبوة الخطيرة التى تعانيها الإنسانية هنا وهناك ، ومن الحماقة التماس هدى للعاملين فى شىء عندهم ...

ونظرة أخرى إلى الاستعمار الغربى الآثم : لقد جثم على مساحات فيحاء من أرض القارة المحروبة « إفريقيا » وبقى أعصاراً طوالاً يعبُّ من خيراتها وينهب ثرواتها الظاهرة والباطنة ، ويتخذ النصرانية ستاراً لأطماعه ، فماذا جنى من هذا المسلك ؟

لقد اغتنت أوروبا من المال الحرام ، وجُبيت إليها ثمرات كل شىء ، واختفى الماء من الموائد لتحل الخمر محله !

وعريت الأجساد من ألبسة التقوى لتكرع النفوس من الشهوة كيف شاءت .

وانجرف الآباء الروحيون مع التيار السائد !

فهل هذا المسلك هو الذى يمهد للناس طريق العودة إلى اللّه ؟

أما الإسلام فهو دين يتيم ، ليست له اليوم أبوة روحية وثقافية تجلو معدنه ، وتبدى حقيقته .

ولعله مشغول بالدفاع عن نفسه وأرضه ضد الضغائن الهابّة عليه من يمين وشمال .

فكيف يقدر فى هذا الوضع على الوفاء بحاجة العالَم إلى السلام النفسى والاجتماعى ؟

إن العالَم يتلوى من الفراغ الروحى الرهيب الذى أسعر فى جنباته نوازع الأثرة والتظالم والجشع .

وهو أفقر ما يكون إلى منقذين من الطراز الذى وصف اللّه رجاله بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون باللّه .

ولعل العرب يقدمون للإنسانية هذا الدواء ، ويؤدون الرسالة التى تخيرتهم لها السماء .

* * *

الحقائق وحدها .. من أجل الإنسان

يجب إحكام الرقابة على الطرائق التى نؤثر بها فكرة على فكرة ، واتجاهاً على اتجاه ، فإن الغش فى المقاييس العقلية أكبر شيوعاً من الغش فى موازين التجار الخونة !

والغريب أن الإنسان قد يضيق إذا بُخس حقه فى سلعة دفع ثمنها كاملاً ، ويشعر بسوأة الختل وسوء المعاملة ، بَيْد أن هذا الإنسان نفسه لا يشعر بكبير حَرَج عندما يصدر حكماً خاطئاً على أمر من الأمور . أو عندما يقتنع بصدق أسطورة مبتوتة الصلة بالواقع ... وقد حرّك القرآن الكريم جمهور المشركين كى يستبينوا طبيعة ما لديهم من عقائد ومذاهب ، وأهاب بهم أن يعيدوا النظر فى تقديمها ! وأن يكشفوا الغش الذى زيّن لهم قبولها ! وساءلهم أين الدليل على ما ذهبوا إليه ؟

﴿ أَمِ اتَّخَذُواْ من دُونه آلِهَةً ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ، فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) .

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

والمطالبة بالبرهان فى كلتا الآيتين ليست أكثر من عرض لإعادة النظر فى المواريث الفكرية السائدة حتى يُنبذ منها ما لا دليل عليه ، وحتى يتخلص الإنسان من قيود الوهم التى تشل قدرته ، وتضلل غايته .

ولسنا هنا فى مقام التنديد بقوم ألغوا عقولهم ، وتبعوا ما انتقل إليهم عن آبائهم ، فإذا بدا لهم خَطَله أصروا عليه ، لبلادة أغلقت عقولهم بالتعصب ،

---

(١) الأنبياء : ٢٤ (٢) النمل : ٦٤

وجعلتهم يردون هاديهم إلى الحق بهذا الجمود : ﴿ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ، قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (١) ، فإن هذا الصنف من الدهماء مهدر الكرامة ، بيِّن الرذيلة .

إنما حديثنا هنا إلى كثير من أُولى العقل الذكى ، والفكر النيِّر ممن يحترمون المنطق ، وينحنون للدليل ، ولكنهم لأمر ما سمحوا لأفكار شتّى أن تتسرب إلى نفوسهم ، وأن تؤثر فى سلوكهم دون وعى كامل ونقد حصيف . والزلل الفكرى لهؤلاء الكبار بعيد المدى .

وأشيع ما يكون هذا الزلل بين المبرزين فى فن عندما يتكلمون فى فن آخر .

إن الرجل قد يتبوأ القمة فى علم الطب ، فإذا تحدَّث فى التشريع أو اللغة وقع فيما لا تقع فيه الناشئة ، وبعض المخترعين تحدَّث فى الدين بكلمات تثير الضحك ، وأبدى آراء لا وزن لها .

وإذا تركنا ميادين التخصص العلمى المختلفة وجدنا أنفسنا أمام عوائق أخرى دون الحقيقة المجردة .

إن العلماء فى ميدان واحد قد يبدأون البحث من أساس هو موضع ثقتهم التامة ، مع أن هذا الأساس نفسه مدخول خادع .

وما أكثر الوراثات والإشاعات والأفهام التى لا تثبت على التمحيص . وهى عند أصحابها عقائد مكينة ، ومن ثَمّ فنحن أحوج ما نكون إلى المنطق العلمى الصارم فى تقويم كل شىء وترتيبه حسب منزلته من اليقين . يقول « ألكسيس كاريل » : « فى جميع الأزمان كانت الإنسانية تتأمل نفسها من خلال منظار ملون بالمبادىء والمعتقدات والأوهام ، فيجب أن تهمل هذه الأفكار الزائفة غير الصحيحة » .

ومنذ أمد بعيد أشار « كلود برنار » فى كتاباته الداعية إلى التحرر الفكرى ،

---

(١) الزخرف : ٢٤

إلى ضرورة التخلص من النظم الفلسفية والعلمية السائدة كما يفعل الإنسان حينما يحطم سلاسل العبودية العقلية ، ولكن بلوغ مثل هذه الحرية لم يتحقق بعد ، لأن البيولوچيين والمعلمين والاقتصاديين وعلماء الاجتماع ، كانوا إذا ما واجهتهم مشكلات شديدة التعقيد غالباً ما يستجيبون للإغراء الذى يستحوذ عليهم لكى يبنوا نظريات ، ثم يقلبوها بعد ذلك إلى معتقدات ، ومن ثَمّ فقد تبلورت علومهم على شكل تراكيب ، شأنهم فى ذلك شأن المتعصبين للديانات . إننا نلاقى كثيراً من دواعى التعب بسبب هذه الأخطاء فى جميع نواحى المعرفة .

ونحن نود لو عولجت الآراء والمقترحات والمذاهب بأقصى ما لدى البَشر من ذكاء وتجرد وحرية ، فإن الأوهام بين الناس أكثر من الحقائق ، ولو كانت الظنون العلمية والاجتماعية والدينية تتساقط من أذهان أصحابها كما يتساقط ورق الشجر فى فصل الخريف ، لعرِّيَت عقول كثيرة مما يتماسك بها .

وما يطلبه مؤلف « الإنسان ذلك المجهول » هو ما سلكه كبار العلماء عندنا .

إن نشدان اليقين هو غاية المفكرين المسلمين فى مزدحم الآراء التى تلقاهم ، ولا شك أن القرآن الكريم من وراء هذا السعى الحميد .

وتأمل فى هذه الآيات التى تجمع الرذائل الفكرية والنفسية لأى رأى وتحذر من مقارفتها : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ (١) .

التخرص ، والانغماس فى الغفلة ، والسهو عن الواقع ، هذه آفات لا تنتج حقيقة أبداً .

ومثلها غفلة الحواس وذهولها : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٢) .

فكم من حاضر الجسم غائب اللُّب ؟ أترى ذلك يعى ما أمامه ؟

---

(١) الذاريات : ١٠ - ١٢ (٢) سورة ق : ٣٧

﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ ، بَلْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (١) .

المرء المغمور بصور مادية ومعنوية معينة قلّما يخرج من محبسه ليدرك مشاهد أخرى للحياة ، أو جوانب من الحق لا يحسها .

إلا أن تدركه أقدار حسنة ، فتتيح له أن يعرف ما كان يجهل .

والحضارة الإسلامية فى أعصار ازدهارها ، وقربها من منابعها ، كانت تلمع فيها هذه الصبغة الباهرة ، صبغة التجرد للحق ، والبحث عن اليقين .

ولنتناول طرفاً من حياة « الغزالى الكبير » ، كنموذج إسلامى فى مجتمع شبيه بعصرنا هذا ، كانت الأفكار فيه والمذاهب تتصارع فى كل قرية ومدينة ، إذ أن الثقافات الأجنبية العالمية تمت ترجمتها تقريباً إلى العربية فى الوقت الذى بلغت فيه علوم الدين واللغة مرتبة الاستقرار ، وشاع الجدل العلمى فى كل ناحية ، وانتشرت مجالسه ومناظراته .

فكان طالب الحق يجد نفسه أمام ألوان شتّى من التفكير ، بين دعوات تجذبه من هنا ومن هناك . وإنك لتلمح مدى الحرية العقلية التى تمتع « الغزالى » بها وهو يصف نفسه فى كتابه « المنقذ من الضلال » إذ يقول :

« ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل العشرين . إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار كل طائفة لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد فى الاطلاع على

---

(١) المؤمنون : ٥٤ - ٥٦

غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته .

« .. وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى - من أول أمرى وريعان عمرى - غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، واستنكرت العقائد الموروثة قرب عهد الصبا إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام ، وسمعتُ الحديث المروى عن رسول الله ، ﷺ ، حيث قال : « كل مولود يولد عن الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه ، أو يُمَجِّسانه » [1] . فتحرك باطنى إلى حقيقة الفطرة الأصيلة ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها من تلقينات ، وفى تمييز الحق منها عن الباطل .

« فقلت فى نفسى - أولاً - إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟ فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم » .

والمنهج العلمى البحت ، الصارم فى ضبط المقدمات ووزن النتائج بموازين الذهب ، لا يلقى أشرف من هذه السيرة ، ولو وضعت هذه السطور المضيئة أمام المؤلف الفرنسى الكبير لامتلأ قلبه إجلالاً لصاحبها .

ونحن - حين نخط هذه السطور - نشفق من متاجرين بالحرية العقلية ، لا يؤيدونها إلا بمقدار ما تعطى الشبهات حق الحياة ، والخطأ حق الانطلاق ، والفوضى حق التدمير .

فإذا أتاحت لهم الحرية ما يبتغون سدوا على خصومهم أفواه الطرق ، ودفعوا بالمجتمع كله صوب ما يعتنقون .

---

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى وأخرجه مالك فى الموطأ وأحمد فى المسند والطيالسى .

وهذه ثمار مرة لا يرى عاقل أن يمهد لها ، والأمر يحتاج إلى تفصيل ومحاذرة .

ففى ميدان العلم ، وفى مجامعه الكبرى ، وصفوفه العليا ، يمكن أن تُدرس النقائص ، وتُسمع شتّى الآراء ، وتُناقَش جهرة دون حَرَج ، ومع تأمين مطلق لذويها .

أما أن يستمكن بعض المنحرفين من آذان العامة ، ويصبوا فيها ألوان الإغراء ، ومنازع الشر ، فهذا هدم لا بناء ، وخطره على المجتمع شديد ، إذ هو سيزلزل القِيَم التى يتحرك بها ، ويوهى الأواصر التى تشد بعضه إلى بعض .

ولقد رأيت بعد إنعام النظر واستقراء الأحداث أن الباطل لا يسير فى الأرض بقواه الذاتية . وإنما تُسيِّره عوامل الرغبة والرهبة ، وتسنده الرشا والسيوف ، وعندما تتخلى عنه يتهاوى من تلقاء نفسه .

أما الحق فإن تجاوبه مع فطرة الله فى النفوس يجعله مقبولاً مستحَباً ، ويقدره على تخطى العقبات واجتياز السدود ، أى أن الحق لا يخشى الحرية أبداً ، إنما يخشي الحرية العوج والجهل والبغى فى الأرض بغير الحق .

ومن ثَمّ فنحن مع توفير الحرية التامة فى أرجاء المجتمع ، نعتقد أن هذه الحرية بما فيها من حرارة ستُنضج السنابل النافعة وتقتل الحشرات الضارة . سيأخذ الحق منها جواز مروره إلى الأعقاب على اختلاف الليل والنهار ، وسينكمش الباطل فى جوها ، فإما صعق لفوره ، وإما تحرك قليلاً ريثما يلقى حتفه .

وكم من عوج فى الدنيا ما يمسك بقاءه إلا استخفاء هذه الحرية العزيزة ، ولو هبّت رياحها يوماً لخلعت جذوره .

وبديهى أن الحرية التى نعشق ، هى تلك التى تحد من جهاتها الأربع بما لا يضر الآخرين .

إنها الجو الذى يعيش على تمحيص الحقيقة ، ويساعد على قبولها دون قسر أو ختل ..

والعلم بالإنسان ورسالته ، وضمان حاضره ومستقبله ، والتسامى به مبنى ومعنى جهد رحيب الدائرة ، بل إن العلم بالإنسان لا يصح إلا مع خبرة محترمة بعلوم الكون والحياة ، وإحاطة حسنة بجملة الحقائق المادية والتاريخية والاجتماعية .

ولا غرو ، فالإنسان أثمن دُرَّة فى هذا الوجود ، والقصور لا يجدى فى فهم قضاياه . ولذلك يقول « ألكسيس كاريل » : « إن علم الإنسان يستخدم جميع العلوم الأخرى ، وهذا سبب من أسباب بطئه وصعوبته » .

ويقول : « من الواضح طبعاً أنه لا يوجد عالِم يستطيع أن يسبق ويتفوق فى جميع الفنون التى لا غنى عنها لدراسة مشكلة واحدة من مشكلات الإنسان .

« وليس هذا مثبطاً للهمم أو معجزاً للباحثين ، ولنبدأ السير من الآن ، سيكون علم الإنسان مهمة المستقبل فيجب أن نقنع الآن بالبداية ، سواء من الناحية التحليلية ، أو من الناحية التركيبية المتعلقة بالصفات الإنسانية » ..

وهنا نشرف على أنفس ما وصل إليه العالِم الغربى الألمعى !

ما الإنسان الذى نحيطه بتلك الهالة النيِّرة ؟

لقد كرَّم اللّه الإنسان من قديم ، وفضّله على صنوف البر والبحر .

وفى عصرنا هذا نجد الإنسان بدل أن يصعد السلم بقدمين يحمله المصعد إلى أعلى ، وبدل أن يقطع المسافات الشاسعة فى سفره ، تحمله الطائرات إلى ما يبغى .

إن عناصر وفيرة فى الأرض والسماء مسخَّرة لإراحة البَشر وترفيههم ، وكلما ارتقت الحضارة زادت أعداد العناصر المسخَّرة للإنسان ، وزادت مقدرة الإنسان على تطويعها لرغبته .

فهل كرامة الإنسان وعظمته تعودان إلى هذه المهارة ؟ كلا . إن الإنسان الذى يصعد السلم على قدميه وهو يلهث أشرف من ممتطى المصعد ، إذا كان الأول يحمل بين حناياه قلباً زكياً ، ونفساً تقية ، وكان الآخر لا يعرف إلا ملء معدته وإطفاء شهوته .

ليس شرف الإنسان بمدى سطوته فى الأرض ، بل بمدى تنمية مواهبه العليا ومَلَكاته النبيلة .

وفى هذه الأيام نستقبل أنباء غزاة الفضاء وهم يحاولون ببأس شديد أن يتعرفوا الكواكب الأخرى ، ويضعوا أقدامهم على سطحها .

إن هذا تقدم رائع بَيْد أن قيمته الإنسانية هابطة ما بقى البَشر على ظهر الأرض يأكل أبيضهم أسودهم ، ويستذل قويهم ضعيفهم ، ويصبحون ، ويمسون وهم لا يحسنون إلا خدمة الإلهاب الطينى الذى احتوى خصائصهم ووظائفهم المادية والمعنوية ، « فإن كل إنسان منصرف الآن - هكذا يقول كاريل - إلى الاهتمام بالأشياء التى تزيد من ثروته وراحته ، فى حين لا يوجد مَن يدرك أن الصفة البنائية والوظيفية والعقلية لكل فرد لا بد أن تتناولها يد التحسين ، فإن صحة العقل ، والحاسة الفعالة والنظام الأدبى ، والتطور الروحى تتساوى فى أهميتها مع صحة الأبدان ومنع الأمراض المعدية .

« إننا لن نصيب أية فائدة من زيادة عدد الاختراعات الميكانيكية ، وقد يكون من الأجدى ألا نضفى مثل هذا القدر الكبير من الأهمية على اكتشافات الطبيعة والفلك والكيمياء . ومن ثَمّ ، فإن من الأفضل كثيراً أن نوجه اهتماماً أكثر إلى أنفسنا عن أن نبنى بواخر أكثر سرعة وسيارات تتوافر فيها أسباب الراحة ، وأجهزة راديو أقل ثمناً أو تلسكوبات لفحص هيكل سديم على بُعْدٍ سحيق . ما هو مدى التقدم الحقيقى الذى نحققه حينما تنقلنا إحدى الطائرات إلى أوروبا أو إلى الصين فى ساعات قلائل ؟ هل من الضرورى أن نزيد الإنتاج من غير توقف حتى يستطيع الإنسان أن يستهلك كميات أكثر بإطراد من أشياء

لا جدوى منها ؟ ليس هناك أى ظل من الشك فى أن علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء عاجزة عن إعطائنا الذكاء والنظام الخلقى والصحة والتوازن العصبى والأمن والسلام .

« .. يجب أن نصرف حب استطلاعنا عن سبيله الحاضر ونوجهه فى اتجاه آخر ...

« .. يجب أن ننصرف عن الأبحاث الطبيعية والفسيولوچية لتتبع الأبحاث العقلية والروحية » .

وقائل هذا الكلام رجل يستمد معرفته من المعمل ، والأرقام ، والوقائع ، وهو يبغى بمنطق العلم التجريبى المنزّه عن الوهم والمجازفة أن يعرف الإنسان نفسه ومصلحته العاجلة أو الآجلة .

* * *

ولو وعى رجال الدين وظيفتهم لأسهموا بنصيب كريم فى هذا الميدان .. أعنى أن يلتفتوا إلى هذا العلم الجديد « علم الإنسان » ليضيئوا متاهاته بمنارات الوحى ، فإن كل علم للإنسان يجب إرساء قواعده على الإيمان بالله واليوم الآخر ، وعلى اعتداد مرحلة العمر فترة اختبار لها ما بعدها .

وعبيد الدنيا ينكرون هذا الكلام أشد الإنكار ، ويتوهمون أن مستقبلهم هنا ، وحسب .

ما أشبههم برجل قرر أن يزرع صحارى القطبين ، واستصحب فى رحلته إليها قناطير البذور . إنه لن يجنى من جليدها إلا متاع الغرور .

* * *

العلم ظهير الإيمان

لم تخل الحياة فى الماضى - ولن تخلو فى الحاضر والمستقبل - من أناس ينكرون الألوهية ويرفضون الدين ، ويريدون أن يعيشوا مبتورين عن الأصل الذى انبثقوا منه ، مخلدين إلى الأرض التى درجوا عليها ، غير مفكرين فى آخرة أو ثواب أو عقاب !

إنما الحياة فى نظرهم إحساس عارض يبقى فى كتلة من اللحم والعظم لبضع سنين ، ثم يتلاشى إلى الأبد .

وفى القرآن الكريم تعجيب من كنود هؤلاء المعطلين الحيارى ينضح على نفسك عندما تقرأ قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

وقد حرصتُ أن أطل على نفوس هؤلاء ، لأطلع على ما فى داخلها ، وأن أتابع سير أفكارهم لأعرف مبلغ عوجها وزيفها .

وذلك لأن جمهرة هؤلاء الماديين أصحاب دعاوى عريضة ، عن فقههم فى الكون ، وإحاطتهم بأسراره ، كأنهم يريدون الإيهام بأنهم كفروا عن علم وذكاء !

والواقع أن كفرهم مجموعة من الأوهام والتخليطات لا تمسكها إلا الجراءة على الحق .

وأن هذه المجموعة من الخيالات لا تثبت على التمحيص ، ولا تتماسك أمام سطوة العقل عندما يسلط عليها فكره النافذ ، ونقده العميق !

كتب أحدهم (٢) يؤرخ ، ويعلل نشأة الحياة على الأرض ، مجتهداً ألا يذكر شيئاً عن الله قط . وناسباً كل شىء إلى مجهول مطلق .

---

(١) النحل : ٤

(٢) الدكتور فورد بلات « ترجمة مجلة المختار » تحت عنوان : « متى بدأت الحياة على الأرض » .

فانظر إلى هذا الكاتب كيف يجسد الأوهام ، ويستعرض صوراً لا مصدر لها إلا أم رأسه فيقول :

« .. لا نستطيع أن نحدد كم من الوقت استغرقت البادرة الأولى من بوادر الحياة ، لكى تظهر فلم يكن هناك أى تحديد للوقت يومذاك . وفى خلال العصور المظلمة ظلت القطرات تجيش ، وتضطرب فى مياه البحار الفاترة . ولا بد أن تجمعات لا نهائية من الذرّات قد حدثت فى المادة العضوية الهلامية . ولكن هذه التجمعات كانت تمحى من الوجود ، بينما تمكنت أفضل القطرات تركيباً من البقاء . أما القطرات الأضعف فقد انهارت خلال عملية يمكن أن نسميها بـ « الاختيار الطبيعى » قبل بدء الحياة .وهكذا ظلت العناصر تكافح وتناضل نحو خلق الحياة فى سكون وحركة لا ترى » .

ونحن نتجاوز عما فى هذه الجمل من سرحان يشبه حلم نائم ، أو هيمان شاعر . ونلقى نظرة أخرى على نبذ من المقال تعرّض فيها الكاتب لتكوين « البروتين » من جزئياته العتيدة !

وعلماء الدين يجمعون على استبعاد حكاية « الصدفة » فى بروز هذا التكوين إلى الحياة ، لأن التأليف المنسق المحكم الرائع الذى يتم به هذا التكوين قاطع فى أنه وليد إشراف أعلى وإرادة مختارة !

بَيْد أنّ الكاتب الكفور أراد أن يسرق عقل القارىء ، فصاغ خلق « البروتين » فى العبارات الآتية :

« ظهرت تدريجياً جزيئات أخرى جبارة ، أو مجموعات من الجزيئات ، وهى سلالات معقدة من القطرات الهلامية البسيطة ، وتستمر هذه العملية حتى يتكون فى النهاية جزىء البروتين العجيب ، بعد وقت يبدو كأنه لا نهائى ، وبعد تفاعلات وامتزاجات كيميائية لا نهاية لها .

« ونحن نتحدث هنا عن هذا الحدث وكأنه وقع فجأة عندما اصطدمت ذرّات معينة بعضها بالبعض الآخر ، واتحدت معاً فى تركيب خاص ، والواقع أننا

اكتشفنا فقط ظهور المادة البروتينية فى الزمن الماضى ، ولا نعرف كيف جاءت إلى هنا !

« ويمكننا أن نقول إن فرصة اتحاد ذرّات « الكربون » و« الأكسچين » و« النتروچين » و« الأيدروچين » وكذلك ذرّات « الفوسفور » ومجموعة العناصر الفلزية بالنسب اللازمة وفى الظروف الملائمة .. إن هذه الفرصة يمكن أن نقارنها بفرصة سقوط مجموعة من أوراق اللعب على مائدة بعد نثرها فى الهواء ، بحيث يتألف منها مجموعات الأرقام مرتبة تماماً . وهذه الفرصة تكاد تكون مستحيلة ، حتى ولو ظللنا نكرر التجربة وننثر أوراق اللعب فى الهواء ، كل ثانية وبلا انقطاع ، طوال التاريخ الإنسانى . ولكننا رأينا كيف أن الجزيئات أخذت تتطور نحو أشكال أكثر تعقيداً . كما أخذت تصطدم بعضها بالبعض الآخر بسرعة ألكترونية خلال زمن لا نهاية له » .

وفى مثل هذه الظروف يمكن أن تتحقق الفرصة البعيدة جداً يوماً ما ! - هكذا يزعم الكاتب - وأن يتكون جزىء « البروتين » !!

والتناقض واضح فى هذا الكلام . فالرجل يقول أولاً : « إن الخلق بطريق الصدفة مستحيل ، ولو كررنا التجربة طوال التاريخ الإنسانى » !

ثم يعود فيقول : « ولكن مع تراخى الزمن ، وامتداد الليل والنهار ، وقع المستحيل وأمكن الخلق » !

هذا هو الأساس العلمى لإنكار الألوهية !!

والزعم بأن العالَم نشأ من تلقاء نفسه كلام كألاعيب السحرة يزدرى العقلاء خباياه . لأن أوله يناقض آخره . وآخره يكذّب أوله ...

ونتساءل نحن : كيف تم خلق « البروتين » ؟ وفى أى بيئة ؟ وبأى قدرة ؟ ومدى ما يمكن أن يكون للصدفة من آثار على تعاقب الليل والنهار فى جميع الأعصار ؟

يقول الدكتور « فرانك اللن » عالم الطبيعة البيولوجية : إن البروتينات من المركبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية ، وهى تتكون من خمسة عناصر هى : « الكربون » و« الأيدروچين » و« النيتروچين » و« الأكسچين » و« الكبريت » ويبلغ عدد الذرّات فى الجزىء البروتينى الواحد . . . . ٤ ذرّة .

ولما كان عدد العناصر الكيماوية فى الطبيعة (٩٢) عنصراً موزعة كلها توزيعاً عشوائياً ، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكى تكوّن جزيئاً من جزيئات « البروتين » يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التى ينبغى أن تخلط خلطاً مستمراً لكى نؤلف هذا الجزىء . ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكى يحدث هذا الاجتماع بين ذرّات الجزىء الواحد .

وقد قام العالم الرياضى السويسرى « تشارلز يوچين چاى » بحساب هذه العوامل جميعاً فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزىء بروتينى واحد إلا بنسبة ١ إلى ١٠ أس ١٦٠ (أى بنسبة ١ إلى رقم عشرة مضروباً فى نفسه ١٦٠ مرة) . وهو رقم لا يمكن النطق به ، أو التعبير عنه بكلمات . وينبغى أن تكون كمية المادة التى تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزىء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات . ويتطلب تكوين هذا الجزىء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدّرها العالم السويسرى بأنها عشرة مضروبة فى نفسها ٢٤٣ مرة من السنين .

ويشرح الدكتور « الدمرداش عبد المجيد سرحان » قانون الصدفة وما يمكن وما لا يمكن فيه فيقول : « إذا كان لدينا صندوق كبير ملىء بآلاف عديدة من الأحرف الأبجدية فإن احتمال وقوع حرف الألف بجوار حرف الميم لتكوين كلمة « أم » قد يكون كبيراً ، أما احتمال تنظيم هذه الحروف لكى تكون قصيدة مطولة من الشعر ، أو خطاباً من ابن إلى أبيه ، فإنه يكون ضئيلاً إن لم يكن مستحيلاً .

وقد حسب العلماء احتمال اجتماع الذرّات التى يتكون منها جزىء واحد من الأحماض الأمينية (وهى المادة الأولية التى تدخل فى بناء البروتينات واللحوم) فوجدوا أن ذلك يحتاج إلى بلايين عديدة من السنين . وإلى مادة لا يتسع لها هذا الكون المترامى الأطراف . هذا لتركيب جزىء واحد على ضآلته . فما بالك بأجسام الكائنات الحية جميعاً من نبات وحيوان ؟ وما بالك بما لا يحصى من المركبات المعقدة الأخرى ؟ وما بالك بنشأة الحياة وبملكوت السموات والأرض ؟ إنه يستحيل عقلاً أن يكون ذلك قد تم عن طريق المصادفة العمياء ، إنه صنع اللّه الذى أحاط بكل شىء علماً . وقدّر كل شىء ثم هدى » .

* * *

أود أن أنفى بشدة وبقوة ما يدور على أفواه البعض من أن البيئة العلمية تربة خصبة للإلحاد . إن هذه شائعة مفتراة لا تليق أن نستمع إليها .

وهدف الذين روّجوها الإيهام بأن الإيمان ينبت فى الأوساط الجاهلة ، ويستخفى فى الأوساط العاقلة .

وهذه فرية مفضوحة ، فإن الإلحاد آفة نفسية ، وليس شبهة علمية .

والذين كفروا باللّه الحق لم ينشأ كفرهم عن استقامة فى التفكير . إنما نشأ كفرهم عن عوج فى الفطرة . وخطل فى الرأي . وضلال فى الخطوات .

وجمهرة العلماء معافوْن من هذا البلاء ، وهم يؤمنون باللّه الحق إيماناً يتخلل شعاب القلب . ويورث مشاعرهم إعزازاً للخالق . وإكباراً لشأنه .

نعم .. إن جمهرتهم تنكر الخيالات المعلولة التى لا تليق بمقام الألوهية . وتكفر بما يلتصق بالتدين من أوهام وتخامين !!

وماذا عليهم إذا كفروا بألوهيات من هذا النوع ؟ إنّ الكفر بها واجب .

وإنّ الإيمان الذى يلده العلم الصحيح ، هو الإيمان باللّه الفرد الصمد . الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

هو الإيمان باللّه الواحد المحيط بكل شيء الذى لا تدركه الأبصار . وهو يدرك الأبصار .. وهو اللطيف الخبير ..

إنّ الازورار عن التدين المعتل علامة صحة نفسية . ونحن إنما ندعو للإيمان باللّه على النحو الذى وصف اللّه به نفسه فى وحيه المصون . وهو إيمان تنشرح له صدور العلماء . وتقر به أعينهم ويستريح إليه تفكيرهم .

عندما نقيم الدليل قاطعاً على ثبوت شيء ما ، وعندما نقيم الدليل - قاطعاً - على نفى ضده ، فماذا يؤكد الحقيقة بعد هاتيك البراهين المتظاهرة !

لقد ثبت أنه من المستحيل أن تُخلق نواة من تلقاء نفسها .

وأن عامل الصدفة لا يجوز فى هذا المجال علمياً .

ومعنى هذا أن القول بحدوث العالَم وحده ، ومن تلقاء نفسه ، تخريف . وأنه لا بد من وجود إلَه عالِم مقتدر حكيم جبار ..

ومع ذلك فإن الفيلسوف الإنجليزى « برتراند رسل » يقول فى صفاقة نادرة :

« ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير . إن نشأته وحياته وآماله ومخاوفه وعواطفه وعقائده ، ليست إلا نتيجة لاجتماع ذَرّات جسمه عن طريق المصادفة » .

والمصادفة التى يتصورها هذا الإنجليزى « المغفل » ليست افتراضاً بنسبة ١ إلى ١٠ ولكنها افتراض بنسبة ١ إلى ألوف من الأرقام يعجز الفم عن نطقها !

هذه هى المصادفة التى وُجِد الإنسان نتيجة لها ، بل وُجِد الكون كله - ما نراه وما لا نراه - بناء على زعمها !

وقد فنّد العلماء الراسخون تلك الخزعبلات ، كما رأيت ، وأقصوها من ميدان الفكر العلمى كل الإقصاء . فهى تخرصات أناس معتلين ، وليست وليدة منطق علمى يتمتع بحظ من الاحترام .

إنَّ فى كل شىء آية تدل على اللّه ، آية تنفى الريبة ، وتورث اليقين ، قال تعالى : ﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

وإذا كنا قد سمعنا الإنجليزى « رسل » يقول : إن الإنسان خُلق هكذا ، فلنسمع مرة أخرى قول العلم فى طريقة خلق الإنسان ، لنرى أين مدخل « الصدفة » فى هذا التكوين الرائع الرائق ؟

قال ابن الخطيب يفسر الآية الأخيرة : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ :

« لو تأملتم فى أنفسكم لوجدتم العجب العجاب ، انظروا مثلاً كيف أنشأكم اللّه تعالى ابتداءً من طين ، ثم كيف خلقكم من نطفة فى قرار مكين ! بل انظروا إلى النطفة نفسها ، وكيف يتكوّن منها الجنين ، الذى لا يتكوّن إلا من الاتحاد بين جرثومة الذكر وبويضة الأنثى . وبذلك تتكوّن خلية ، يحدث انقسام بينها إلى خليتين ، ثم انقسام آخر لكل من الخليتين ، ثم آخر للمنقسمين ، وآخر وآخر ، وهكذا دواليك ، إلى أن يصل العدد إلى أربعين جيلاً من الخلايا ، حتى يزيد مجموع الخلايا - التى يتكوّن منها الإنسان الواحد - عن سكان الكرة الأرضية بأكثر من ألف مرة .

« وكل خلية من هذه الخلايا تعيش بمعزل عن الأخريات ، وكل منها بمثابة مصنع للإنتاج ، منها ما ينتج الشَعر ، ومنها ما ينتج الأظافير ، ومنها ما ينتج العظام ، ومنها ما ينتج الدم .... وهكذا .

« ومتى نضجت هذه الخلايا ، واكتمل نموها ، تخصص كل منها فى تكوين نوع واحد من الأنسجة والأعضاء .

« هذا وقد أصبح من السهل جداً - تحت المجهر - التفريق بين الخلايا المكوِّنة للكبد ، والخلايا المكوِّنة للكلى ، بالرغم من أن مهمة العضوين تكاد تكون واحدة : هى الاشتراك فى عملية التغييرات الكيميائية فى الجسم .

---

(١) الذاريات : ٢٠ - ٢١

« ومن هذه الخلايا ما يُنتج الجهاز العصبى ، الذى يتوقف عليه إيصال الرسائل من الحواس والأعضاء المختلفة إلى المخ ، ومن المخ تنتقل الرسائل - التى هى بمثابة أوامر وأحكام - إلى العضل والأطراف التى تتحرك بموجبها - تبعاً للظروف المحيطة بالإنسان - أو إلى الغدد الجمة ، فتفرز سائلاً معيناً - وفقاً للحالة التى يجابهها الشخص - كالدموع ، واللعاب ، والأدرينالين .

« مثال ذلك : إذا أبصر إنسان لصاً أمامه بيده خنجر : فإن الجهاز العصبى يوجه إلى المخ إشارة بذلك الخطر المحدق ، فتتلقى الجوارح من المخ إشارة بما يجب اتباعه . وقد يشير المخ - تبعاً للسلوك الشخصى للإنسان - بالفرار من اللص ، أو بالهجوم عليه وانتزاع الخنجر من يده ، أو بمبادرته بطلقة من مسدس ، أو ضربة من عصا ونحوها ، على أن الزمن الذى تستغرقه هذه الرسائل - الذاهبة والآيبة - يدق على أى آلة أو أداة لاسلكية أو ألكترونية إذ لا يتجاوز جزءاً من مائة من الثانية .

« فعلاقة الحواس بالمخ علاقة ثابتة ما ثبت الوعى والإدراك ، اللذان يتفرع منهما التمييز ، والتصور ، والذاكرة ، والتعليل ، والطموح . وإدراك الهدف .

« ولا يخفى ما فى خلقة المخ من أعاجيب وغرائب ، فمن أعجب الأعاجيب اختزان العلوم والمعارف والمدارك ، والمحفوظات ، واستخراج ما يراد من ذلك من سجلاتها المرتبة المبوبة فى ظرف ربما لا يتجاوز ارتداد الطرف ، بوساطة ذبذبات يعجز اللسان عن وصفها ، ويضيق الجنان عن الإحاطة بها !

« هذا وقد دلّ الفحص المجهرى على أن عدد الخيوط العصبية فى المخ يتجاوز عشرة آلاف مليون . كل واحد منها تدب فيه الحياة ، ويحمل وظيفة عضوية يؤديها على أكمل وجه .

« وعلى هذا المنوال تؤدى أجسامنا - بما احتوته من أعضاء - وظائفها ذات الأهداف المتباينة ، بغير وعى منها ، الأمر الذى يدل دلالة قطعية على أن هناك إرادة عليا تُسيِّرها وتُوجهها !

« ولو لم يكن فى بديع صنع الإنسان : سوى أنه يأكل الطعام ، ويشرب الشراب ، فى مدخل واحد ، ثم يخرج كلاهما من مخرج منفصل عن الآخر ، لكفى ذلك عجباً ! وناهيك بما يفعله الجسم بالطعام والشراب حين يهضمهما ، ويأخذ أطايبهما ، ثم يلقى بنفايتهما ، بعد أن يستنفد وقوده ، ويأخذ حاجته ، ويستوعب كفايته .. فتبارك الله أحسن الخالقين ..

« ولو تأملتم حواسكم : لوجدتم أعجب العجب ! انظروا مثلاً إلى حاسة اللمس ، وكيف أنكم تستطيعون بها الفرق بين الناعم والخشن ، والبارد والحار ، واللين والرخو . وانظروا أيضاً إلى حاسة الشم ، وكيف تستطيعون بواسطتها معرفة زكى الرائحة من رديئها ، وطيب النكهة من فاسدها .

« وانظروا أيضاً إلى حاسة الذوق ، وكيف تستدلون بواسطتها على تذوق الأصناف والطعوم ، ومعرفة الحلو والحامض ، والمر ، والمالح .

« وكذلك البصر وانطباع المرئيات عليه وانعكاسها على صفحة المخ لتترك أثرها .

« وكذلك السمع ، وانقلاب المسموعات إلى مفهومات ، وانطباع هذه المفهومات فى حافظة المخ لتزودكم به ، وقت حاجتكم إليه . وهكذا سائر الأعضاء بما وهب لها الله تعالى من مزايا يضيق الخاطر عن حصر فوائدها ومنافعها !

« فهَلا فكر الإنسان فى خلقة نفسه ، ودقة حواسه ، وتأمل هذه الآلات والأدوات ، التى صاغها الخلاق العليم ، وبرأها المدبر الحكيم ! وهل يستطيع الإنسان - بما أوتى من علم ومال ، وجاه وسلطان - أن يستعيض عن أحدها لو سلبها ، أو أن يردها بعد تلفها ، أو أن يفهم كنهها ، ويعرف سَر تركيبها ! حقاً لو تأمل الإنسان بعض ذلك ، لما وسعه إلا أن يقول : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ ؟

ومع هاتيك الدلائل المتظاهرة على وجود الله تعالى ، واستناد عالمنا فى نشأته وبقائه على قدرته جلّ جلاله .

ومع إطراد البراهين على أن الدين حق ، وأن تعاليمه مناط الرشد وطوق النجاة .

ومع ذلك كله فبين الحين والحين نسمع امرءاً مهزوز الرأى والضمير ، يهرف بما لا يعرف ، ويظن العامة ستسلكه فى عداد العباقرة إذا أعلن كفره بالله وباليوم الآخر .

وما أكثر أولئك المتعالمين الأغرار ، فى هذه الأيام العجاف ..

* * *

إننى شديد الاحترام للدراسات التجريبية المستيقنة التى يتميز بها عصرنا هذا .

ولقد أبصر الإنسان فى نفسه ، وتابع التأمل فى الطريقة التى تدور بها أجهزته ، وتتحرك أعضاؤه ، ثم عاد بمجموعات من المعارف الساحرة تتضافر على تكوين عقيدة راسخة فى إله بديع قدير .

إن القول بأن السد العالى بُنِى من تلقاء نفسه ، أو أن القنبلة الذَرِّية انطلقت من تلقاء نفسها أقرب إلى التصديق من القول بأن الجسم الإنسانى بُخلق هكذا .. دون إشراف أو تدبير ، وبلا خطة ولا حكمة !!

ذلك أن الطريقة التى تكوّن بها الجسم ، والتى يحيا بها آناً بعد آن أروع وأبدع ألف ألف مرة من أعظم المنجزات والكشوف التى عرفناها .

فلنسمع صوت العلم يحدثنا عن عمل « الدم » فى الجسد الحي ، وكيف يدور بين منبعه ومصبه ذهاباً وإياباً ، ليمد كل ذَرَّة فى جسدنا بالحياة والحرارة والحركة .

يقول : « ألكسيس كاريل » :

« إن الإنسان لا يستطيع أن يفهم الكائن الحى بدراسة جثمانه الميت ، لأن أنسجة الموتى قد حرمت دمها الجارى وعمل وظائفه .

« والعضو الذى يُفصل عن الوسط المغذى الذى يعيش فيه لم يعد له وجود .

---

(١) ملخصة من كتابه الكبير « الإنسان ذلك المجهول » .

« وفى الجسم الحى يجرى الدم فى كل مكان ، فتستحم كل الأنسجة فيما تحتوى عليه من سائل شفاف .

« ولكى نفهم هذا العالَم الباطن كما هو ، يجب أن ندرس أعضاء الحيوان الحى والإنسان كما نراها أثناء الجراحات ، لا كما تتفق لنا فى أبدان الموتى .

« وينبغى أن لا نفرِّق بين الخلايا أو بيئتها كما يفعل علم التشريح ، فإن كل الخلايا الحية تعتمد فى حياتها اعتماداً مطلقاً على الوسط الذى تكون مغمورة فيه ، وإنها لتغير هذا الوسط تغييراً لا ينتهى ، وتتغير به ، والحق أنها جزء منه وليس لها بغيره حياة .

« يتألف الدم من حوالى ٢٥ إلى ٣٠ ألف بليون خلية حمراء و ٥٠ مليوناً من الخلايا البيض ، وهذه الخلايا كلها معلقة فى سائل هو المصل ..

« ويحمل الدم لكل نسيج من أنسجة الجسم غذاءه المناسب ويقوم فى الوقت نفسه مقام الأنابيب التى تلقى فيها الفضلات المتخلفة عن الأنسجة الحية .

« ويحتوى الدم كذلك على مواد كيميائية وخلايا قادرة على ترميم الأعضاء كلما مسَّت الحاجة .

« وإن خواصه هذه فى الحق لعجيبة ، فإن الدم فى أدائه هذه الوظائف المدهشة يعمل ما يعمل السيل الذى يحمل فى عبابه من الطمى والشجر ما يكون سبباً فى إصلاح ما يمتد على شطآنه من معاهد العمران .

« وهذا المصل ، الذى هو زاخر بمواد أكثر مما يظن ، يحتوى على مواد زلالية وأحماض وسكريات ومواد دهنية ، ومفرزات من كل الغدد والأنسجة .

« وعلمنا بطبيعة أكثر هذه المواد ووظائفها الشديدة التعقيد علم ناقص !!

« وفى الدم فوق هذا أجسام مضادة للجراثيم ، تظهر عندما يكون لزاماً على الأنسجة أن تحمى نفسها من محاولات غزوها .

« يضاف إلى ذلك أن فى هذا المصل مادة زلالية تدعى « الفيبرين » تلتصق خيوطها من تلقاء نفسها بالجروح فتكفها عن النزيف .

« ويسرى فى الجسم بأسره هذا الفيض من مواد الغذاء .

« وليست أغشية الهضم بمساحاتها الواسعة جداً مرشحة لهذه المواد فحسب ، ولكنها تقوم أيضاً مقام المصنع الكيميائى .

« وتفرز الأغشية المخاطية التى تغطى باطن الجوف ، مقادير عظيمة من السوائل ، وتمتص مثلها ، فتأذن خلاياها للأطعمة بعد هضمها أن تنفذ إلى الجسم ، ولكنها تمنع الميكروبات التى تزخر بها قناة الهضم أن تنفذ إليه .

« وهذا العدو المخوف لا يقل خطره ولا يزول .

« ففى الحلق والأنف تعيش الميكروبات الفيروسية ، وفى اللوزتين تثوى الجراثيم السبحية وجراثيم الدفتريا .

« وتتكاثر ميكروبات الحمى التيفودية والدوسنطاريا بسهولة فى الأمعاء .

« وسلامة أغشية التنفس والهضم لها سيطرة عظيمة على مقاومة الجسم للأمراض المعدية ، وعلى توازنه وكفايته واتجاهاته الفكرية .

« وتشد غدد التناسل أزر القوى البدنية والعقلية والروحية جميعاً ، فما من خصىٍّ أصبح فيلسوفاً عظيماً قط . أو عالماً كبيراً ، أو حتى مجرماً خطيراً .

« وتفرز الخصيتان والمبيضان فى الدم مواد معينة ، تجعل لأفعالنا كافة مميزاتها الخاصة ، فإفراز الخصيتين يورث الجرأة والضراوة والقسوة ، وهى السجايا التى تميز ثور الصراع من الثور الذى يجر المحراث فى الحقل . ويؤثر إفراز المبيضين فى كيان الأنثى أثراً مشابهاً .

« والفلذة من النسيج الحى إذا وضعت فى قارورة احتاجت إلى مقدار من السائل يعادل حجمها ألفى مرة ، كى لا تقتلها فضلاتها السامة فى بضعة أيام .

« وعلى هذا لو أن الجسم البَشرى أحيل عجينة ، وزرع زرعاً صناعياً ، لتطلب ٢٢٥ر٠٠٠ لتر من السوائل المغذية .

« ولكن نظراً للكمال الخارق الذى امتازت به الأنسجة المسئولة عن دورة الدم فى الجسم ، وعن ثروته من المواد الغذائية ، وعن نفض الفضلات منه على الدوام ، نجد أنسجتنا تستطيع أن تحيا فى سبعة لترات أو ثمانية من السوائل بدلاً من . . . ر٢٢٥ لتر !!

« ويسرى الدم فى الأنسجة بسرعة تكفى لمنع تركيب الدم من أن يتأثر بما يُلقى فيه من الفضلات .

« ويقدَّر كل عضو مقدار الدم اللازم له وسرعة جريانه فيه ، وذلك بمعونة الأعصاب التى تسيطر على أوعيته الدموية .

« فالمخ وسائر الأعضاء يتطلب كل منها ضغطاً خاصاً للدم الجارى فيه ، ويتوقف أمر سلوكنا ونوع أفكارنا على حالة دورتنا الدموية توقفاً كبيراً .

« وكل الجهود البَشرية تابعة لحالة هذا الوسط الغذائى .

« وعندما يعود الدم من العضلات والأعضاء إلى القلب تدفعه نبضات القلب إلى شبكة الشعيرات الدموية الهائلة فى الرئتين ، حيث تأخذ كل كرة حمراء حظها من أوكسچين الجو ، وفى نفس الوقت تنفض فى الجو ثانى أوكسيد الكربون بحركات التنفس .

« وتتم تنقية الدم فى الكلى حيث تنفصل منه بعض المواد خارجة مع البول ، وحيث تقدَّر هى مقدار الأملاح الضرورية للمصل .

« ويجرى عمل الرئتين والكلى بكفاية عظيمة ، وإن نشاطهما البالغ ليثير الدهشة ، فهو الذى يهيئ للبيئة المائية اللازمة للأنسجة الحية أن تكون قليلة فى مقدارها كل هذه القلة ، ويهيء للجسم البشرى أن يكون مدمجاً خفيف الحركة .

« وفى الدم فوق ما فيه من أكسچين الهواء ومنتجات الهضم فى الأمعاء ، نوع آخر من المواد المغذية مكونة من إفرازات الغدد الصم التى من خواصها العجيبة أن تصنع من مفردات الدم الكيميائية مركبات جديدة .

« ومن عمل هذه المركبات أن تغذى بعض الأنسجة وتنبه إلى بعض الوظائف .

« ويشبه هذا الأسلوب - فى أن يجدد الشىء نفسه بنفسه - أسلوب تربية الإرادة بجهد الإرادة نفسها ..

« فالغدد الدرقية والغدتان فوق الكليتين ، والبنكرياس مثلاً ، تصنع مركبات جديدة هى الثيروكسين والأدرينالين والأنسولين على التوالى ، فهى مصانع كيميائية حقيقية .

« وتصنع بهذه الطريقة مواد لا غنى عنها فى تغذية الخلايا والأعضاء ، وفى شتّى وجوه النشاط البدنى والعقلى .

« وهذه الظاهرة تشبه فى غرابتها سيارة تستطيع بعض أجزائها أن تصنع الوقود الذي تستهلكه أجزاؤها الأخرى ، وأن تصنع المواد التى تضبط احتراق هذا الوقود ، بل أن تصنع خواطر المهندس الميكانيكى نفسه المشرف على الحركة أيضاً !!

« وإلى هذه الغدد يعود الفضل فى حياة الجسم وما ينطوى عليه من شتّى ألوان النشاط .

« فالإنسان أولاً كيان قائم على التغذية ، فهو مركب من حركة دائبة بين مواد كيميائية ، وتجرى المادة جرياناً دائماً بين خلايا الجسم كلها ، تهب الأنسجة ما تتطلبه من الطاقة ، وتمنحها المواد الكيميائية التى تبنى لأعضائنا ومزاجنا كيانها المؤقت الرقيق » !!

ونتساءل مثنى وثلاث ورباع : أين مكان « الصدفة » فى مسير الحياة دخل هذا الجسد الإنسانى ؟

وكيف يقول امرؤ يحترم نفسه أن انحباس الدم فى القلب وانسكابه فى ألوف العروق والشعيرات ، وقيامه بهذه الوظائف الرهيبة ، كل ذلك يتم خبط عشواء !!!

إنها حقارة عقلية بعيدة الغور يأنف العلم أن تتصل به أو تُنسب إليه !!

وأمر أولئك الملحدين لا يتجاوز قول الكتاب الكريم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (١) .

وبعض الناس فى بلادنا يلحد تقليداً لما ترامى إلى أذنيه من أن العلماء فى أوروبا وأمريكا ملحدون !!

وقد سمعتُ أحدهم يثرثر بكلمات غامضة عن نظرية « النشوء والارتقاء » !

فلما قلت إن : « داروين » صاحب هذه النظرية يؤمن باللّه .. فغر فاه دهشة . لأنه كان يعتقد أن « داروين » أبو الكفر ، وموئل الكافرين !

واستتليت أحدِّث هذا الغرَّ : إن نظرية أصل الأنواع فكرة فى الطريقة التى تكونت بها الأحياء المختلفة . هل وجدت على صورتها الحالية ، أم هى سلالات لمخلوقات أخرى ؟

وليس فى النظرية ما يشير - من قُرْب أو بُعْد - إلى أن العالَم قد تكوَّن من غير خالق ..

وهذه النظرية قد تصح وقد تفسد ، ولكنها على الحالين لا تضر قضية الإيمان . ولا تؤازر دعاوى المغالطين والفُسَّاق .

ولندع كفر التائهين والمتعالمين ، ولنؤكد أن الإلحاد يذوب فى حرارة المنطق العلمى الرزين . وأن هذا الإلحاد قد يجد له متسعاً فى البلاد التى لم تعرف الإسلام .. ولم تستضىء بنوره . لأن التدين الأرضى أضعف من أن يقاوم المذاهب المادية ..

أما حيث يقوم الإيمان على البحث فى الكون والتأمل فى مشاهد الأرض والسماء ، فهيهات أن تروج للإلحاد بضاعة أو ينطلى له زيف !

---

(١) الحج : ٨

ثم إن أسلوب القرآن الكريم فى الحديث عن اللّه وتصوير جلاله ومجده يتطابق مع ما يوجبه العقل للخالق الكبير من عظمة وتقديس !

ومن هنا ، فإن تراث الوحى الإلهى عندنا ، تُقْرأ حقائقه ، وكأنها نتائج لمقدمات عقلية خالصة ، وضعها الفكر الرصين !

وذاك ما يجعل العلم والإيمان قرينين لا ينفكان !

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ * خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

* * *

(١) العنكبوت : ٤٣ - ٤٤

obeikandl.com

الإنسان بين المادية والإيمان

من مواريث التربية الدينية فى مشاعرنا ووجهاتنا ، الإيمان بامتداد الحياة ، وأن الموت ليس عقبة تقفها ، وإنما هو مرحلة تتحول عندها .

وهذا التحول الجلل لا ينتقص شيئاً من مقومات الشخصية الإنسانية ، كما أن الإنسان على الأرض ، هو هو الإنسان فى طور انعدام الوزن الذى سجله رُوَّاد الفضاء أخيراً .

وهو طور عجيب ، يجعل الإنسان البدين فى خفة العصفور ، بل أرق ! مَن كان يصدق أن الأرض التى تكْفِت البَشر أحياءً وأمواتاً تدع الإنسان يعوم فى الجو على هذا النحو ؟

أياً ما كان الأمر ، فنحن المؤمنين نعتقد أن الحياة خالدة ، وأن الحياة الأخرى تنبت من الحياة الأولى ، وأن المرء هو هو فى حاليه جميعاً ، وأن ما يعرو الجسد من تلاش لا يؤثر فى حقيقة الروح ، ولا فى كيان الإنسان المعنوى ، ويعجبنى قول السهروردى ، رحمه الله :

قل لأصحاب رأونى ميتاً ... فبكونى إذ رأونى حزناً
لا تظنونى بأنى ميت ... ليس هذا الميت والله أنا
أنا عصفور وهذا قفصى ... طرتُ عنه فتخلى رهناً
فاخلعوا الأنفس عن أجسادها ... فترون الحق حقاً بيناً
لا ترعكم سكرة الموت فما ... هى إلا بانتقال من هنا

والموقنون بالله واليوم الآخر عندما يدركون الوجود على هذا المدى الرحب ، يرتفعون بقيمته ويتقنون فيه ، إذ يشكلون أنفسهم وفق مراد الله منهم ، ويشكلون الحياة وفق مراد الله لها ، ويحسون وهم على ظهر الأرض بأن لهم نسباً فى السماء ، وأن لهم قرابة تصلهم بأزل العالَم وأبده .

والواقع أن الإنسان المرتبط بالدين ، هو الذى يحس نعمة الوجود ، ويدرى دراية مطمئنة من أين جاء ؟ وإلى أين يصير ؟

أما الشخص المادى البحت الذى يؤمن بجسد لا روح معه ، ودنيا لا آخر بعدها ، فهو مبتور الحس مشوّه البصيرة ، وفكرته عن الحياة تهوى بقيمة البَشر إلى حضيض بعيد .

وأذكر أنى التقيت من بضع سنين بمسخ من هؤلاء ، وجرى الحديث بيننا عن الخير والشر والأبرار والفجار ، فسرى الفزع إلى نفسى من دمامة الصورة التى فى ذهنه عن الحياة والأحياء .

فهمت منه أن المجتمع يتخلص من الأشرار كما يتخلص الفلاحون فى الحقول من الحشرات المعتدية على لوز القطن بشتّى السوائل الفتاكة ، أو كما نتخلص نحن فى بيوتنا من الذباب والهوام بالغازات القاتلة .

وأن من حق الأحياء بث السكينة فى أكناف المجتمع بهذه الطريقة .

وأن نهاية أي مجرم لا تزيد عن نهاية برغوث هلك ، أو دودة أبيدت ، وانتهى الأمر ..

أما الأخيار ، فحقهم المقرر أن نعيمهم الأول والأخير ، هو مستوى المعيشة المرتفع !

.. عدة أكلات شهية ، وعدة بدلات حسنة ، وساعات من السمر والمرح .. ثم يجثم الكيان الإنسانى كله - بما أوتى من ذكاء لماح ومشاعر طموح - فى حفرة داكنة ، هى نهايته الأخيرة ، لا يفترق عن أى دابة تنفق بالشيخوخة أو تخترم حياتها بإطلاق الرصاص .

ألا ما أهون الوجود ، وأخسّه لو كان محكوماً بهذا الإطار الوضيع .

ولو أخذنا قطعة من مخ أى ملحد ، وسلطنا عليها المجهر لنكتشف أثارة من شعور بالحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والفضيلة والرذيلة ، ما وجدنا شيئاً

قط ، إلا ما يتواضع القوم على فعله ، أو تركه ، لتحسين السنوات القلائل التى يقضيها الناس على ظهر هذا الكوكب المنحوس .

وكأن القدر يعامل هؤلاء الشاردين بنقيض مقصودهم - على حد تعبير الفقهاء - فهم بقدر ما يعبدون الحياة ، وينشدون لذاتها ، لا يؤوبون إلا بالحرمان والشظف بعد الجهد المتواصل ، والنهم الشديد .

والفجيعة الكبرى يوم يودعون الحياة ، حاسبين أنفسهم فى نقلة إلى أودية الفناء ، فإذا هم بعد الموت يشعرون بكل شىء ، ويدركون أنهم كانوا فى ضلال بعيد : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (١) .

إننا لا ندرك كنه الروح ، ولا سر الحياة فى المادة .

ولا نحتفى بأوهام « الروحية الحديثة » واتصالاتها المزعومة .

ولا نشرح هنا مذهباً معيناً عن علاقة الجسد بالروح ، وإنما نحن نحدد تحديداً حاسماً طبيعة الحياة المؤمنة ومسلكها ، وفق تعاليم الوحى وهداية المرسلين .

إن الإنسان - حسب تناول الدين له - كلٌّ متماسك وتزكيته المنشودة تشمل جوانب نفسه الظاهرة والباطنة

وقد وُجد من مفكرى الإسلام مَن تحدُّث عن الروح وحده والبدن وحده وعن النشأة المختلفة لكلا العنصرين . ونحن نعرف قصيدة ابن سينا فى الروح :

هبطت إليك من المحل الأرفـــع ورقاء ذات تدلـــل وتمنـــع

وقصيدة شوقى فى معارضتها :

يا نفس مثل الشمس أنت أشعة فى عامر ، وأشعة فى بلقع

---

(١) الجاثية : ٣٣ - ٣٤

فإذا طوى اللّه النهار ، تراجعت شتّى الأشعة والتقت فى المرجع

ونحن لا نتعصب لهذا التصوير وحده ، فربما كان لبعض المفكرين رأى آخر فى بدء الخلق .

وإنما الذى ننبه إليه أن المؤمن لا يعيش لغرائزه الدنيا ، ولا لحاجاته العاجلة .

وأنه واثق من لقاء اللّه بعد الموت ثقته من وجوده فى هذه الدنيا .

وأن جسمه يمثل جزءاً من وجوده لا الوجود كله .

وأن اللّه لم يتركه سدى ، بل رسم له صراطاً مستقيماً ، وأمره ألا يحيد عنه .

لكن البَشر من قديم احتجبوا وراء أسوار المادة الظاهرة ، وظنوا الوجود لا يعدو هذه المحسوسات ، وكذّبوا المرسلين حين حدّثوهم عن اليوم الآخر ، وقال شاعر جاهلى :

يحدثنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام ؟

إن الإيمان بالحاضر والكفر بالغد ، والإيمان بالجسد والكفر بالروح ، إن هذه المادية الصماء ليست وليدة التقدم العلمى الحديث كما يعرف البعض ، إنها وليدة الجهل القديم ، وهو جهل لم تنقشع ظلمته عن طائفة من الناس .

وإنه لكذب عميق القاع أن يقال : هذا الكفر وليد الارتقاء العلمى !

لقد تتبعنا أقوال كثير من الملحدين ، فرأيناها صدى دقيقاً لما كان يردده الدهماء من البدو والبله من الأعراب :

كلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحة

من أجل ذلك لم أصدق حرفاً مما كتبه الدكتور « محمد مندور » فى العدد (١٩) من مجلة « الفجر » تحت عنوان « موقف شجاع من الحياة » ، قال :

« أدت الحرب العالمية الثانية إلى انتشار مذهب فكرى وأخلاقى جديد هو المذهب « الوجودى » ، ذلك أن أهوال وفظائع هذه الحرب قد أوحت بفشل التراث

الدينى والأخلاقى ، فى قيادة البَشر وتجنيبهم الويلات ، حتى قال « چان بول سارتر » زعيم الوجودية : « إن الوجودية ليست دعوة ! بل تقرير واقع ، وإن البَشر قد تحولوا إلى وجوديين ، بضغط تلقائى من الأحداث والفجائع ، التى ابتلوا بها فى الحرب » .

ثم قال « مندور » : « والوجودية ترى أن مبادىء الدين والأخلاق قد أفسدت قيادة البَشر ، وأن الإنسان لم يعد يؤمن إلا بأنه موجود ، وعليه أن يعدل سلوكه فى كل موقف من مواقف الحياة ، بمحض اختياره وتقديره الفعلى لمصلحته الحقيقية ، كفرد وكعضو فى مجتمع ، بدلاً من أن يعود إلى التراث الدينى والأخلاقى يستوحى منه سلوكه » .

ثم استطرد « مندور » يضرب مثلاً للسلوك الوجودى ، بمسرحية « الذباب » التى كتبها « سارتر » وفيها : « يقتل الابن أمه بالاشتراك مع أخته لأنهما رأيا مصلحتهما الشخصية فى ذلك . وأنهما استطاعا بعد هذا أن يستبعدا عنهما عذاب الضمير الذى شبهه بطنين الذباب ، لأن راحتهما وسعادتهما كانت متوقفة فى رأيهما على قتل هذه الأم » !

* * *

هل هذا تفكير تقدمى ؟ إن الطعن فى الدين كله والاستغراق فى الوجود الحاضر داء تفشى فى العالم من أجيال سحيقة ، وهل تكاثر المرسلون يحذرون القافلة المعنّاة إلا لهذه العلة الدفينة ؟

فما الجديد ، فى ضلال « سارتر » وغيره من الوجوديين ؟

هل هذا تفكير إصلاحى ؟

إن ربط التقاليد والقوانين بالأهواء والمنافع عودة سريعة إلى دنيا الغاب ، ويوم تكون قصارى البَشر أن يشبعوا نهمتهم من الحياة ، فما الفرق بين جماهير الناس وقطعان الدواب ؟

هل هذا موقف شجاع من الحياة ؟ كلا .. إن الذين تؤودهم المثل الرفيعة ، ويعجزون عن تبعاتها ، ويؤثرون النكوص على التقدم ، لا صلة لهم بالشجاعة من قريب أو بعيد .

المضحك فى مزاعم الوجوديين ، والماديين ، وكل كافر بالسماء ، أنهم يحسبون أنفسهم تقدميين وأن غيرهم متخلف ، من بقايا القرون الجامدة ..

ليس هذا ما يقوله أصحاب « سارتر » فقط ، بل قاله الوثنيون لمحمد ﷺ من أربعة عشر قرناً :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أءِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أئِنَا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ (١) .

أى هذه رجعية ، أما إنكار البعث ، وعودة الحياة فتقدمية علمية ، حمل رايتها أبو جهل ، وغيره من عباقرة البحوث الكونية !

يؤسفنى أنه فى ميدان العلم - حيث السيادة للحقيقة المجردة - تنتشر شائعات لا أساس لها ، تزعم أنه قد ثبت بالتجربة والاستقصاء تخلق الحياة من تلقاء نفسها ، وأنه قد ثبت أن ما نسميه روحاً أو عقلاً ، ليس إلا وجهاً من وجوه النشاط المادى ، وصورة من صور الحياة المحسوسة ، وأن الكون أجمع بدأ على سُنَّة النشوء والارتقاء بداية تدل على أنه لا ألوهية ، وأن الحياة مادة ! .. إلى آخر هذا الإفك .

ونسمع نحن لهذه الدعوى العريضة ، ثم نسمع لكلمات العلماء الأخصائيين فى الموضوع فنجد العجائب التى تثير الأضاحيك .

لقد ذكرنا جملة من المعارف الساطعة فى هذا الموضوع ، ولا بأس من إضافات أخرى .

---

(١) النمل : ٦٧ - ٦٨

يعتقد العالِم الطبيعى السوفييتى « الكسندر أوبارين » أن الحياة نشأت على الأرض كجزء مكمل لكيان هذا الكوكب نفسه .

وتتلخص البحوث التى أجراها هذا الأستاذ وتلاميذه على مدى عشرات السنين فى أن الحياة - وهى صورة من صور المادة فى نظره - تمثل عملية متصلة تبدأ من اتحاد مواد غير عضوية لتكوِّن مركبات عضوية ، وهذه تتعقد لتكوِّن فى النهاية أنظمة تماثل الأنظمة الموجودة فى الأحياء الدنيا - وقد تم هذا على مدى ملايين السنين قبل أن تعمر الأرض بالحياة - والترجمة له - إحقاقاً للحق نقول : إن البحث العلمى الذي أجرته هذه المدرسة السوفييتية وغيرها من المدارس فى إمكان استعادة نشأة الحياة بطرق معملية قد وقف عند حد معين لا يتعداه . بل لم تستطع أى من هذه المدارس جميعاً - الشرقية منها أم الغربية - أن تصل إلى تركيب معملى قريب الشبه من المادة الحية بحال .

ثم إن « أوبارين » نفسه - ككل عالم نزيه - لم ينكر هذه الحقيقة ، بل يذكر صراحة فى مقدمة البحث الذى ألقاه على مئات العلماء المجتمعين فى نيويورك فى المؤتمر الدولى الأول لعلوم البحار فى شهر أغسطس عام ١٩٥٩ والذى خصص قسم منه لبحث نشأة الحياة على الأرض قوله : « إن جميع المحاولات التى أجريت لتوليد الحياة من المواد غير العضوية سواء تحت ظروف طبيعية أو فى المعمل قد باءت بالفشل » .

بَيْد أن نظريته التى ألقاها على المجتمعين والتى سبق أن نادى بها فى الندوة الدولية التى عقدت عام ١٩٥٧ فى موسكو لبحث نشأة الحياة ، فيها استعراض عملى رائع « للاحتمالات » التي يمكن أن تكون الحياة قد نشأت وفقاً لها .

ومن هذه الاحتمالات الهائمة ، والتخمينات العائمة ، والافتراضات التى يتصيدها المرء من الوهم لتصوير فكرة ملكته ...

... ومن هذا كله يدَّعى العالة على موائد العلم أن لا ألوهية ولا روح !

مجموعة من التخيلات التى لو صحَّت ما كان لها دلالة خطيرة ، يريد بها بعض الناس أن نترك من أجلها اليقينيات ، ونخلع من أعماقنا كل شعائر الإيمان .

إن الإلحاد يوم يعتمد على هذه الاحتمالات العلمية ، فليس يقوم إلا على شفا جرف هار ، وليقل الماديون ما شاءوا إلا أن يصطنعوا لغة العلم وطرائقه فى النفى والإثبات ، فهم غرباء فى هذا الميدان .

لنتدبر وصف العلماء لما تحتويه الخلية من مظاهر الحياة ، ثم لنتساءل عما يعنيه هذا الوصف الساحر :

« يمكننا تشبيه الخلية الحية بدولة أو قُطر كبير يضم مقاطعات ومدناً مزدحمة ، وشبكة من الأنهار والمواصلات السلكية واللاسلكية معقدة التركيب ، وشوارع كثيرة وقرى ودساكر ، وكل هذه الوحدات تتبادل السلع فيما بينها على هيئة مواد خام ومواد مصنعة وغازات وطاقة » .

كل ذلك يجرى بداخل تلك الخلية التى لا تراها العين !

« كما أن ثمة نظاماً محكماً وآلية مضبوطة بقوانين ، للتفاعلات التى تحدث داخل هذا النظام ، بحيث لا يختلط تفاعل بآخر . ويتم هذا العزل بواسطة أربطة ، ليست ثابتة ولا مستديمة ولكنها تتحول وتتغير من آن لآخر وفقاً لنظام معين أيضاً ، وهكذا تقوم الحياة فى أبسط صورها على نسق دقيق معقد من علاقات فائقة التنظيم » .

مَن صانع هذه الخلية التى لا تراها العين ؟

مَن ذرأها من عدم وأودع فيها القوى الباهرة ، وأقام فيها - على ضآلتها - هذه العلاقات الساحرة ؟؟

أهو الوهم الذى يسمونه « الصدفة » أم أبدعها وأشرف عليها مَن ﴿ .. كُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ ؟ (١) .

إن الماديين يستطيعون أن يزعموا أى شىء ، إلا شيئاً واحداً ، هو أن تفكيرهم المعطل المظلم يعتمد على أثارة من علم !!!

* * *

(١) الرعد : ٨ ، ٩ بلفظ : ﴿ وكُلُّ .... ﴾ .